كرة القدم: لماذا تهمّنا؟

تقديم

نهلة الشهال | لماذا كرة القدم تهمنا؟ 3

العراق

ميزر كمال | كرة القدم: لعبة الشعب والسياسة في العراق 5

تونس

محمد رامي عبد المولى | كرة القدم في تونس: السلطة والجمهور يتنازعان الملعب 15

مصر

رباب عزام | الكُرة المصرية: متنفسٌ للناس وعزاءٌ لهم 27
إسلام ضيف | «الألتراس» في مصر: سنوات من تنكيل السلطة بهم 36

الجزائر

عمر بن درة | من الكفاح ضد الاستعمار إلى التعبئة من أجل الحريات: كرة قدم الشعب في الجزائر 46

المغرب

سعيد ولفقير | الألتراس المغربي: نصيرٌ للجماهير، خصمٌ للسلطة 57

السودان

خالد فتحي | كرة القدم في السودان: كيف مُزجت بالسياسة؟ 67

كرة القدم النسائية في منطقتنا

عائشة بلحاج | الكرة في ملعب النساء... حلم بعضهن وكابوس المجتمعات العربية 77

صورة الغلاف: منتخب المغرب يحتفي بفوزه بالربع النهائي من كأس العالم *2022* رافعاً علم فلسطين

العربي السفير
يصدر عن جمعية تقاطعات
www.assafirarabi.com

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
مكتب شمال إفريقيا
North Africa Office

تم دعم هذه المطبوعة من قبل مؤسسة «روزا لوكسمبورغ».
يمكن استخدام محتوى المطبوعة أو جزءٍ منه طالما تتم نسبته للمصدر.

لماذا كرة القدم تهمّنا؟

نهلة الشهال

أستاذة وباحثة في علم الإجتماع السياسي

رئيسة تحرير «السفير العربي»

... لأن اللعبة من مسببات الفرح القليلة لشعوب المنطقة، كما أنّها رابط فعّال وحقيقي بينهم، مثلما رأينا في المونديال الأخير، في أواخر العام 2022، حيث ظهرت على السطح مشاعر الأخوّة، متجاوِزة حتى اعتبارات طائفية أو سياسية كانت موجودة بقوة. إذاً في هذه اللعبة شيء خفيّ يجعلها مُحَرّكة لعواطف الانتماء.

الاهتمام بالرياضة، بمعناه المباشر، ليس «مهمة» منصّتنا، مع أن بين كتابنا وكاتباتنا من «يعرف» كرة القدم خصوصاً، ويتابعها ويدافع أحياناً بشدة عن «فريقه»! وهم وهنّ أنتجوا بفرح وحماس هذه النصوص الجميلة. ولا شك أن كرة القدم في منطقتنا كما في العالم كله تستقطب اهتماماً شعبياً يفوق من بعيد أي اهتمامٍ سواه، لأنها تحمل رمزيات متراكبة تخصّ كل المجالات، ولأنها ميدان لممارسة السياسة منذ نشأتْ، فاستولدت أخيراً حركات المتحمسين لفرقها، الملتزمين بها كجيش جبار، والمعروفين بـ«الألتراس».

وهؤلاء ليسوا المشجعين التقليديين، ولا هم الـ «هوليغن» المشاغبون، بل هي حركات منظّمة، لها قواعدها وقوانينها المحْكمة، وتطبق ممارسات صارمة وتوفّر استعراضات كبرى متماسكة، ما يقرّبها من الحركات الاجتماعية مع فارق أنها لا تمثل قطاعات مهنية أو فئوية بذاتها، بل تنتمي إلى الفريق الذي تتبناه. وهذا شكل جديد تماماً، وهو ملفت، وقد تبدّت لنا أهميته أكثر من أي وقت منذ بدأ «الألتراس» باتخاذ مواقف سياسية تجلت في شعارات يرفعونها وأهازيج يطلقونها، تحكي عن آلام المجتمع، وتشكو الإهمال والفقر والقمع، كما تُردِّد عشرات ألوف الحناجر في ملاعب المغرب والجزائر ومصر. ثم راحت تتضامن مع فلسطين المضطهَدة، في كل مناسبة وخلال كلّ لعبة، وعانت من قمع وملاحقات ومنع من الحضور إلى الستاد، أو أشكال متنوعة من تقنينه. وقد وصل القمع أحياناً إلى حدود المجازر كما في مناسبتين في مصر – مجزرتَا «استاد بور سعيد» و«استاد الدفاع الجوّي». وتوِّج هذا الاهتمام بالشأن العام – وهو تعريف «السياسة» - بنزول «الألتراس» إلى التجمعات في الميادين والمظاهرات كما حدث في انتفاضة 2011 في مصر وفي انتفاضة 2019 في العراق والجزائر...

كل هذه المواضيع يتناولها كتّابنا في دفتر «كرة القدم: لماذا تهمنا؟»، مسجِّلين أصل وفصل الظاهرة، وكونها تمتلك جذوراً سابقة على «الألتراس» بصيغته الحالية وعلى ما يجري «اليوم»: النضال الفعلي ضد الاستعمار الفرنسي للجزائر، تأكيد الانتماء الوطني بوجه تعالي الاستعمار الإنجليزي في العراق وكذلك في السودان، والاستقطابات المعبِّرة عن انتماءات طبقية وفكرية وسياسية في مصر خلال السطوة البريطانية...

وقد خصصنا نصاً من الدفتر لفرق كرة القدم النسائية في منطقتنا، باعتبار اللعبة و«ألتراساتها» مطبوعة بالذكورية، ولاستكشاف التغييرات المحتملة في هذا الجانب. كما حاول كتّابنا تلمس أثر تطبيق شرط التفرغ المهني على الفرق وهو الذي قضم جانباً مهماً من طابعها الأصلي، وكذلك الإشارة إلى «البزنس» المهول الذي يمثّله هذا القطاع، والمرتبط دوماً بالصراعات وبفساد كبير.

ولم يكتف باحثونا وباحثاتنا بالكلمات، بل اهتموا بملاحقة الصور والفيديوهات وتجميع الأهازيج والأناشيد، وتثبيت كلماتها لتُقْنع القارئ بما نُقدِّم كتحليل، ولتمسّ أيضاً مشاعره، فاكتملت الصورة...

العراق

عراقيون في شوارع بغداد يحتفلون بفوز المنتخب بكأس آسيا *2007*. (الأرشيف العراقي المشاع)

كرة القدم: لعبة الشعب والسياسة في العراق

ميزر كمال

كاتب من العراق

في 2007، وفي وقت استعار النزاعات الطائفية العنيفة في بغداد وسائر المناطق، فاز المنتخب العراقي بكأس آسيا، وشاعت أغنية تقول: «شفتوا لاعب بالملاعب يلعب وإيده على جرحه؟ هذا لاعبنا العراقي من المآسي جاب فرحة». وبها تجلت قوة كرة القدم في العراق وأثرها شعبياً. فالمنتخَب الذي كان يلعب فيه يونس محمود (السني) وهوار ملا محمد (الكردي) ونشأت أكرم (الشيعي) كانوا يمثِّلون العراق الذي تعب من الحروب والحصار.

لم تخرج كرة القدم من القبر في العراق، ولم يأتِ بها الدفّانة كما يزعم ألتراس نادي النجف، الذين يهتفون مع كل مباراة لناديهم: «النجف يا محبوبة.. يالعلمتيهم الطوبة»، وبشكل خاص عندما يخوض النادي أي مباراة مع أحد «الكبار» في مجمّع الأندية العراقية «الجماهيرية» الكلاسيكية: الزوراء، الشرطة، الطلبة، القوة الجوية. التسمية الشعبية لكرة القدم في العراق هي: الطوبة.

وصلت كرة القدم إلى العراق قادمةً من البحر، والبحارة الإنكليز هم من ركلوها أول مرة على شواطئ مدينة البصرة نهايات القرن التاسع عشر، عندما كانت السفن تأتي وتذهب بالبضائع والبريد من أوروبا مروراً بالخليج ثم العراق، وصولاً إلى الهند وآسيا. فكانت لعبة أخذها أهالي البصرة عن البحارة، ثم انتقلت إلى المدينة وصارت اللعبة الشعبية في المدارس والأحياء، وتأسس في البصرة «نادي الميناء»، عام 1931.

عندما اجتاح الجيش البريطاني العراق عام 1914، كانت كرة القدم تصل مع الجنود الذين يحملون البنادق أيضاً. وهكذا وصلت إلى بغداد والحبّانية وكركوك، وراح العراقيون في أحيائهم الشعبية يقلّدون اللعبة التي كان الجنود البريطانيون يمارسونها في معسكراتهم للترفيه. ويصف المؤرخ والصحافي والمدرب إسماعيل محمد إسماعيل، كيف بدأت كرة القدم في الأزقة والمحلات القديمة لبغداد، عندما كان الأولاد يصنعون «الطوبة» من قطع القماش القديمة، يكورونها ويركلونها في الشوارع والساحات. واستمرّت هذه الطريقة في صناعة كرة القدم من القماش في الأحياء الفقيرة حتى وقت الحصار، عندما كان الأطفال لا يملكون سعر كرة القدم (النايلون واللاستيك والغوبلس والجلد)، فيسرقون جوارب أمّهاتهم الطويلة ويحشونها بقطع قماش بالية لصناعة طوبة مجانية.

انتشرت كرة القدم في العراق ليس لأنها لعبة فقط، بل لإنها أكثر من ذلك في المملكة الجديدة، والتي كانت واحدة من مهامها صياغة شكل للدولة ومؤسساتها. وأحد أشكال هذه الصياغة هو إيجاد صلات بين هذه المؤسسات الجديدة والمجتمع، وكانت كرة القدم هي إحدى هذه الصلات. ومن أجل ذلك أسست الدولة فرق كرة قدم تتبع لوزاراتها ودوائرها في بغداد والألوية الأخرى من البلاد، واستمر ذلك حتى الآن.

ظلّ البريطانيون «أساتذة اللعبة» في العراق، يديرونها ويضعون قواعدها ويقيمون لها البطولات المحلية. إلا أن الأرشيف العراقي يوثّق لحظةً مبكرة في تحول كرة القدم إلى فعل «احتجاج ومقاومة» من قِبل الفكر الذي يحاول إدارة المؤسسة بشكل «أكثر استقلالية» عن تأثير المزاج الإنجليزي، والذي كان يتعامل بفوقية «المحتل». ومنذ تلك البدايات، بدأ الملعب يغري السياسة بالحضور إلى المقصورة.

الفرق التي تأسست حينها وكانت تتبع لمؤسسات الدولة الجديدة هي فرق وزارة الأوقاف، وزارة المالية، الأشغال، المدرسة الثانوية، دار المعلمين، مدرسة الصنائع، المدرسة الحربية (طيران الجيش)، مطبعة الحكومة، منتدى التهذيب... ومؤسسات أخرى. ومع أن البريطانيين ظلوا «أساتذة اللعبة»، يديرونها ويضعون قواعدها ويقيمون لها البطولات المحلية، إلا أن الأرشيف العراقي يوثّق لحظةً مبكرة في تحول كرة القدم إلى فعل «احتجاج ومقاومة» من قِبل الفكر الذي يحاول إدارة المؤسسة بشكل «أكثر استقلالية» عن تأثير المزاج الإنجليزي، والذي يوثق الأرشيف أيضاً أنه كان يتعامل بفوقية «المحتل». ومنذ تلك البدايات، بدأ الملعب يغري السياسة بالحضور إلى المقصورة.

لعبة «الكولونيل» والأمير الصغير

بداية آذار/مارس 1923، كانت لحظةً أعلن فيها «نادي كاجولز» الإنجليزي تفوقه في كرة القدم عندما فاز على فريق «جمعية كرة القدم البغدادية» بثلاثة أهداف مقابل لا شيء، وحملت أول بطولة كرة قدم في العراق اسم النادي، فكان 1923-1924 أول موسم لبطولة «كأس كاجولز». يوثق الكاتب سمير الشكرجي في صحيفة «المدى» ذلك الموسم، وما نشرته الصحافة حينها عن «إدارة عراقية» لأول كاس كرة قدم - حتى وإن كان يحمل اسماً بريطانياً.

ويكشف هذا بذرة الصراع الإداري في تشكيلات الرياضة، والتي كانت كلها كرة قدم. فجمعية كرة القدم البغدادية، أطلقت على البطولة اسم «بطولة الإتحاد البغدادي لكرة القدم» فاتخذت البطولة إسمين، ويبدو أنها كانت على درجة من الاهتمام عند قادة الدولة حينها، إلى الحد الذي جعل «دولة رئيس الوزراء جعفر باشا العسكري»، كما تصف جريدة الاستقلال، «يقدم الكأس الفضية الى فرقة المدرسة الثانوية» التي فازت على فرقة وزارة الأشغال في سباق كرة القدم.

توثق الصحافة العراقية أجواء المباراة النهائية لكأس الأمير بين فريقي اللاسلكي والطيران، التي فاز فيها الطيران، واستلم الكأس من يدي «سمو الأمير» الذي كان يجلس في المقصورة بصحبة السياسي العراقي «جعفر أبو التمن»، أحد أبرز الشخصيات السياسية العراقية التي قادت مقاومة الاحتلال البريطاني في «ثورة العشرين»، ثم قاد تشكيلات الحركات التحررية في العراق خلال العهد الملكي.

نجاح الموسم الأول ورضا «جماهير كرة القدم» أغريا الدولة كما البريطانيين بالسيطرة على لعبة كرة القدم. والبريطانيون يعرفون معنى ذلك جيداً منذ أن كانت قواعدها في القرون الوسطى تقتضي أن رجال القرية الذين يصلون بالكرة إلى القرية الأخرى هم المنتصرون. وهذا النزاع الذي يشبه اللعب، جرَّ إلى حوادث عنف وقتل، حدّ منعها وتجريمها بمرسوم ملكي في عهد الملك إدوارد الثالث، ملك إنجلترا، وحرّمتها أيضاً الكنيسة الفرنسية باعتبارها «لعبة خبيثة وخطيرة».

خطورة اللعبة هي أنها تغذّي شعوراً متطرفاً بالانتماء، وهذا يخلق جواً من التعصب والكراهية (في قواعدها القديمة والجديدة) ويثير النزعة إلى وجود خصم يجب الانتصار عليه، والتعبير عن الفرح بهذا الانتصار: التعبير بالتشفي والقسوة، وهذا مزاجٌ منابته تأتي من العنف أو النزعة البشرية في التعبير عنه.

في الموسم الثاني لبطولة «كاس كاجولز» أو «بطولة الاتحاد البغدادي لكرة القدم»، أصدرت جمعية كرة القدم البغدادية - تُنظِّم البطولة بالتنسيق مع البريطانيين - عدة قررات منها: أن اللاعبين البريطانيين غير مقبولين في البطولة، وانضمام فريق المدرسة الحربية إلى البطولة، وتوزيع ساحات اللعب على الفرق المشاركة، والقبول بأربعة حكّام إنجليز لتحكيم المباريات.

قبل انطلاق مباريات الموسم، حُلّت الجمعية، وقدم رئيسها يوسف عز الدين بك الناصري استقالته لكي «يتفرغ لأعماله الخاصة»، واستعادت الهيئة الإدارية لنادي «كاجولز» البريطاني السيطرة على تنظيم البطولة. غير أن الدلالة السياسية الأهم في ذلك الموسم ظهرت عندما غيّر البريطانيون مراسم التتويج، فبعد أن سلم «دولة رئيس الوزراء العراقي جعفر باشا العسكري» الكأس لبطل الموسم الأول، قرر البريطانيون أن يقوم الكولونيل

«جوبس» مستشار وزارة الدفاع بتقديم الكأس للبطل، فريق المدرسة الثانوية، الذي فاز بهدف واحد على فريق وزارة الأشغال، في مباراة نهائية حضرها نوري السعيد، الذي كان يشغل حينها منصب وكيل القائد العام للقوات المسلحة، والذي صار فيما بعد رئيس وزراء العراق، في 14 حكومة خلال العهد الملكي.

مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، كان الأمير غازي - ولي العهد حينها - شاباً يسعى إلى ترسيخ الفكرة التي تقول إنه الشخصية الأكثر شعبيةً عند المواطنين، وهذه الفكرة أخذت بالانتشار بعد أن عُرف عنه ميله للأفكار العروبية والقومية، وابتعاده عن الملعب البريطاني الذي له أنصاره في المملكة الحديثة. فحدث مطلع الثلاثينيات أن أقيم «كأس سمو الأمير غازي» بالتزامن مع «كأس كاجولز» التي يقيمها البريطانيون في كل موسم منذ مطلع العشرينيات.

أول منتخب عراقي لكرة القدم. (الإنترنت)

توثِّق الصحافة العراقية أجواء المباراة النهائية لكأس الأمير بين فريقي اللاسلكي والطيران، التي فاز فيها الطيران، واستلم الكأس من يدي «سمو الأمير» الذي كان يجلس في المقصورة بصحبة السياسي العراقي جعفر أبو التمن، أحد أبرز الشخصيات السياسية العراقية التي «قاومت» الإحتلال البريطاني في «ثورة العشرين»، وقاد تشكيلات الحركات التحررية في العراق خلال العهد الملكي.

في الوقت الذي كانت كرة القدم تكبر في نفوس الشباب والأطفال في الأحياء الشعبية، وتنتشر في المدن العراقية، ظلَّ تطورها على المستوى المؤسسي للدولة بطيئاً، مع إدراك هذه الأخيرة الكبير أنها صلة مهمة بين «الشعب» والدولة. فلم ينته العهد الملكي حتى تحولت فرق الوزارات العراقية إلى أندية، مثل أندية الشرطة، القوة الجوية... وأصبح للعراق اتحاد كرة قدم عام 1948، ثم أصبح عضواً في الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا)، ثم تأسس المنتخب الوطني العراقي عام 1951، الذي لعب أول مباراة «ودية» له مع منتخب البصرة، تحضيراً للعب أول مباراة دولية له مع منتخب إزمير، في تركيا.

كرة القدم على طريقة الديكتاتور وابنه

بعد النهاية الدموية للعهد الملكي وقيام الجمهورية (1958) ولغاية استحواذ صدام حسين على السلطة، لم تكن كرة القدم تشكل حضوراً قوياً في مشهد الجمهوريات المنقلبة على بعضها – على العكس من حضورها في الشوارع والأحياء الشعبية - عدا عن كونها لعبة شعبيةً، ترعاها الدولة وتمول أنديتها (الحكومية) وتقيم بطولاتها المحلية، كجزء من برامجها الحكومية.

الدلالة السياسية الأهم ظهرت عندما غيّر البريطانيون مراسم التتويج. فبعد أن سلّم «دولة رئيس الوزراء العراقي جعفر باشا العسكري» الكأس لبطل الموسم الأول، قرر البريطانيون أن يقوم الكولونيل «جوبس»، مستشار وزارة الدفاع، بتقديم الكأس للبطل، فريق المدرسة الثانوية، الذي فاز بهدف واحد على فريق وزارة الأشغال.

لكن، مرةً أخرى تعود السياسة إلى المقصورة، وهذه المرة على طريقة صدام الحسين وابنه عدي، أو الأستاذ عدي كما صار يُنادى به ويُبجَّل ذكره عندما صار رئيس اللجنة الأولمبية. لكن اللحظة التي سبقت عدي كانت للرئيس نفسه، عندما جعل صباح مرزا، رئيساً للاتحاد العراقي لكرة القدم، ومرزا هو المرافق الأقدم للرئيس. ومثلما يفكر الديكتاتور يفكر ابنه: لماذا كل هذه الأندية الجماهيرية؟ لنجعلها نادياً واحداً، ونجمع فيه كل الأبطال، يركعون للقائد، ويخضعون لابنه الذي صار رئيس اللجنة الأولمبية ورئيس الاتحاد العراقي لكرة القدم. وهكذا أسس عدي صدام حسين «نادي الرشيد»، وجلب إليه كل لاعبي المنتخب العراقي الذين يلعبون مع الأندية الجماهيرية الكبيرة: الزوراء، الشرطة، القوة الجوية، والطلبة.

عندما تأهل العراق إلى تصفيات كأس العالم في المكسيك العام 1986، بث التلفزيون الرسمي لقاءً جمع المنتخب الوطني وعدي صدام حسين. فالنظام لن يفوت استثمار هذا «الإنجاز» الذي أهداه اللاعبون إلى «الرئيس القائد والأستاذ عدي». في ذلك اللقاء الذي كان يقدِّمه شيخ المعلقين مؤيد البدري - مقدِّم برنامج «الرياضة في أسبوع» الشهير - كانت الإتصالات المفتوحة تَرِدُ إلى لاعبي المنتخب وعدي من قبل الجمهور الرياضي، وأحد الأسئلة كان لخليل علاوي - اللاعب الذي سجل الهدف الثالث على سوريا - عن شعوره بتسجيل الهدف، ليردَّ نجم المنتخَب بأنه «شعور أي مقاتل يحقق النصر لبلده».

أصبح للعراق اتحاد كرة قدم عام 1948، ثم أصبح عضواً في الاتحاد الدولي لكرة القدم (الفيفا)، ثم تأسس المنتخب الوطني العراقي عام 1951، الذي لعب أول مباراة «ودية» له مع منتخب البصرة، تحضيراً للعب أول مباراة دولية له مع منتخب إزمير، في تركيا.

انتهت الحرب مع إيران، واجتاح الجيش العراقي الكويت ثم انسحب بمعركة دمرت مقدراته، وفُرض الحصار على العراق، وحُظر عليه إقامة المباريات الدولية على أرضه. وهنا بدأت مرحلة «هكذا يلعب المحاصَرون... هكذا بالعناد يغلبون»، وتحوّلت كرة القدم إلى فم للنظام في المناسبات الخارجية والبطولات العربية والآسيوية. واستمر ذلك حتى احتلال العراق ليجيء الجيش الأمريكي وإدارة سلطة الاحتلال لاستخدام كرة القدم والمنتخبات العراقية في الترويج لفكرة أن أمريكا حررت العراقيين من صدام حسين وها هم يفوزون بالبطولات وينافسون العالم في ركلة القدم.

ويحكي «عدنان حمد»، مدرِّب المنتخب الأولمبي حينذاك، كيف حاول الرئيس الأمريكي في حينها، جورج بوش الإبن، استغلال تأهل المنتخب الأولمبي إلى نهائيات أثينا 2004، وكيف أراد زيارة معسكر المنتخب الوطني بعد الفوز على البرتغال 0-4. وحينها كان بوش يسعى للفوز بولاية ثانية في الانتخابات (التي فاز بها بالفعل). ويقول عدنان حمد: لم يكن بوش وحده من أراد تلميع صورته من خلال استغلال كرة القدم العراقية، وإنما طَلب منه الحزب الديمقراطي كتابة مقال ينتقد فيه الاحتلال وجورج بوش وينشرونه في صحفهم. لكن حمد رفض ذلك، وفي الوقت الذي كان المنتخب الأولمبي يلعب في المربع الذهبي في أثينا، كان ملعب الشعب الذي يتسع لأربعين ألف متفرج قد تحوّل إلى ثكنة عسكرية للجيش الأمريكي بعد قصف مدرجاته والمستطيل الأخضر بالطائرات.

عدي صدام حسين بالزي العسكري يتوسط المنتخب الوطني العراقي لكرة القدم عام *1985*. (الأرشيف العراقي المشاع)

اللعب في العراق الجديد

العنف الذي انفجر في العراق بعد 2003، وصلت شظاياه إلى المدرجات أيضاً، ولم يعد الخوف من السلطة ضابطاً لألتراس الأندية، فصارت تُسمع هتافات سياسية وطائفية وعنصرية في المباريات. ففي مباريات «الديربي» بين ناديي «القوة الجوية» و«الزوراء»، يردد جمهور القوة الجوية كلمة «بعثية بعثية» التي تخرج من المدرجات كأنها رشقٌ من الرصاص، لاستفزاز «الزوراء» وجمهوره، على اعتبار أن الزوراء كان نادي حزب البعث المفضّل. ويحدث أكثر من ذلك. فمثلاً في مباراة ناديي «أربيل» و«الصناعات الكهربائية» ضمن الدوري الممتاز، نزل جمهور نادي أربيل الخاسر إلى ملعب فرانسو حريري (على اسم سياسي عراقي أشوري مقرب من الملا مصطفى البرزاني وكان في وقت محافظاً لأربيل، واغتيل في 2001) واعتدى على اللاعبين والطاقم التحكيمي. كان ذلك عام 2020 وفي ذروة انتشار فيروس كورونا، وكان من المفترض أن المباراة تقام بلا جمهور بسبب الحظر الصحي، لكن الجمهور حضر وقام بأعمال شغب. ومثل ذلك حدث في إحدى المباريات بين ناديي النجف وكربلاء، عندما وقع

إطلاق نار في المدرجات. وهذا الشغب ليس فردياً، لقد أصبح ظاهرةً الآن.

لكن هنالك مشهداً آخر لجمهور كرة القدم في العراق، ففي خليجي البصرة 25، عبَّر الجميع عن تجربتهم الفريدة في استضافة مدينة البصرة للبطولة بعد 43 سنة من آخر بطولة استضافها العراق، وعلى الرغم من كل ما حدث وطبعاً جرى استغلال المناسبة سياسياً، وتدافع المسؤولون العراقيون من رئيس الوزراء ورئيس البرلمان والوزراء مروراً بمحافظ البصرة وصولاً إلى مقتدى الصدر - الذي كان يحرّم كرة القدم لكنه صار يجمع المنتخب ويعطي أفراده دروساً في «طاعة» المدرب. على الرغم من كل هذا، إلا أن الجمهور كان الحدث الأهم حتى من البطولة نفسها. وفي المباراة النهائية بين العراق وعُمان، فقد الجمهور العراقي مشجِّعاً في التدافع الذي وقع أثناء الدخول إلى الملعب، الذي امتلأ بأكثر من 60 ألف متفرج. لكن، رغم الحدث المأساوي في بداية المباراة، فاز العراق بكأس الخليج للمرة الرابعة في تاريخه، فغمر الفرح شوارع البصرة وكل العراق.

مرةً أخرى تعود السياسة إلى المقصورة، وهذه المرة على طريقة صدام الحسين وابنه عدي، أو الأستاذ عدي كما صار يُنادى به ويُبجَّل ذكره عندما صار رئيس اللجنة الأولمبية. لكن اللحظة التي سبقت عدي كانت للرئيس بنفسه، عندما جعل صباح مرزا، رئيساً للاتحاد العراقي لكرة القدم، ومرزا هو المرافق الأقدم للرئيس.

قوة كرة القدم في العراق وأثرها شعبياً تجلّيا عام 2007 عندما فاز المنتخب العراقي بكأس آسيا. حينها كانت الحرب الطائفية في بغداد وأعمال العنف في بقية المناطق تشهد تصاعداً في وتيرتها. لكن كرة القدم، والمنتخَب الذي كان يلعب فيه يونس محمود (السني) وهوار ملا محمد (الكردي) ونشأت أكرم (الشيعي) وبقية التشكيلة، كانوا يمثّلون العراق الذي تعب من الحروب والحصار. وسيظل «هوار ملا محمد» حاضراً في الذاكرة العراقية وهو يعبّر عن فرحه بإظهار جملة «عراقي أنا». تلك البطولة حولت الشعور الطائفي العنيف إلى لحظة فرح غامر، وبدلاً من إهداء الكأس للرئيس القائد ونجله، كان اللاعبون يهدون الفوز والكأس للشهداء العراقيين الذين سقطوا جراء الاحتلال، وشاعت في حينها أغنية أدتها مجموعة من المطربين العراقيين تقول: «شفتوا لاعب بالملاعب يلعب وإيده على جرحه؟ هذا لاعبنا العراقي من المآسي جاب فرحة».

في ذلك العام 2007، كان العنف قد تفشّى في المجتمع العراقي، عنف طائفي في بغداد وفي المدن الأخرى، قتال شوارع أطرافه تنظيم القاعدة والجيش الأمريكي وجماعات المقاومة السنية والجماعات الشيعية التي صارت تُعرف الآن بالمليشيات. حينها كانت الجدران مزدحمة بالمنشورات والصور لأفكار عقائدية وسياسية، لكن ذلك المنتخب غيَّر المشهد، فصارت صور «نجومه» تُطبع على الملابس، وتُلصق على الجدران والأعمدة، وصار زي المنتخب رائجاً في ساحات الفرق الشعبية، واكتشف العراقيون أنهم يستطيعون سويةً صناعة الفرح أيضاً. وعن تلك اللحظات «الفريدة» نشر الصحافيان الإيطاليان «ماكس سيفيلي» و«دييغو ماريوتيني» كتاباً بعنوان: «هدف في مرمى بوش»، يحكي سيرة جورفان فيرا، مدرب ذلك المنتخب، الذي يقول إن الفوز بكأس آسيا 2007 «جاء في وقت استثنائي. كان الجميع بحاجة إلى فرحة تمحو جراح العراقيين وأحزانهم».

الطائفية التي خسرت في الملعب، ظلت تفوز في السياسة، ورئيس الاتحاد العراقي، حسين سعيد، الذي كان أسطورة الملاعب العراقية، استقال من رئاسة الاتحاد بعد حملات تشويه قادها «حزب الدعوة» ضده، والمضايقات التي أجبرته على الانسحاب من انتخابات الاتحاد العراقي لكرة القدم، ومثله حدث مع «عدنان حمد» المدرب العراقي الأشهر، الذي أُبعِد عن التدريب بقرار من وزير الشباب والرياضة «جاسم محمد جعفر». وجاسم هذا هو عضو «ائتلاف دولة القانون» بزعامة نوري المالكي، الأمين العام لـ«حزب الدعوة». وفي حوار تلفزيوني، سُئل

الوزير عن إبعاده لعدنان حمد، فردّ بأنه كان مع البعثيين وضد «العراق الجديد».

«العراق الجديد» ومنذ مطالعه، تحديداً في تموز/يوليو 2006، شهد الحدث الذي شكّل ملامح الرياضة العراقية بشكل عام وكرة القدم بشكل خاص، عندما اختطفت ميليشيا مسلحة ترتدي زي مغاوير وزارة الداخلية وتقود مركباتها، رئيس اللجنة الأولمبية «أحمد الحجية» (أول رئيس للجنة الأولمبية بعد عدي صدام حسين). حينها، اختطفوه علناً في منطقة الكرّادة وسط بغداد مع 35 من الإداريين الذين كانوا مدعوّين لحضور مؤتمر في المركز الثقافي لوزارة النفط. لم يُعرف مصير رئيس اللجة الأولمبية ومرافقيه حتى اللحظة، لكن مسار كرة القدم العراقية تحدد منذ لحظتها بسيطرة القوى الحاكمة الطائفية على اللعبة.

تشكيلة المنتخب العراقي ضد نظيره الإيراني عام *2019*.

... والآن؟

في «ساحة التحرير» التي كانت تكتظ في 2019 بجماهير المعتصمين منذ أشهر لإصلاح النظام السياسي والاجتماعي، كان آلاف الشباب يحتبسون أنفاسهم في الوقت الإضافي بانتظار هدف الفوز على المنتخب الإيراني في المباراة التي أُقيمت على ستاد عمّان الدولي، بعد أن قرر الاتحاد الدولي («فيفا») نقل مباريات المنتخب العراقي أمام إيران خارج أرضه.

في الدقيقة 91 أنهى علاء عباس المباراة بهدف حاسم. لم تكن تلك مباراة كرة قدم، كانت تشبه المعركة، الدائرة أصلاً في ساحة التحرير. كان دعاء أمجد عطوان وهو ينفذ الركلة الركنية التي مررت الكرة لعلاء وصنعت الهدف، يشبه الصلاة في ساحة التحرير، وكان الفرح بالفوز هو شعورٌ عميق ورغبة أجيال تعاني من العنف الذي يسببه النظام الإيراني في العراق اليوم.

كرة القدم بالنسبة للعراقيين هي نافذة للتعبير الواضح عن شعورهم بالفرح أو بالحزن، لكنها اليوم أكثر من

ذلـك، بعـد أن تحولـت إلى سـوق وسـلطة في العـالم، ولم تعـد «الغِـيرة العراقيـة» تكفـي لتطويرهـا. والبطـل الوحيـد، المهاجـم الفـردي البطـل، «أسـد الرافديـن» و«الجنـدي المقاتـل»، لم يعـد يصنـع الفـارق في أسـلوب اللعـب الحديـث القائـم عـلى الفريـق كلـه. وهـذا مـا تفتقـده كـرة القـدم العراقيـة، فالـدوري الممتـاز رديء والأنديـة ليسـت لديهـا ملاعـب، فضـلاً عـن ملاعـب التدريـب، ومـا يـزال تمويلهـا فقـيراً – مقارنـةً بسـوق أنديـة الكـرة في الخليـج عـلى سـبيل المثـال - فهـي تُمـول مـن ميزانيـات الـوزارات والمؤسسـات التابعـة لهـا، والتـي تـأتي مـن ميزانيـة الحكومـة. فمثـلاً أعـلى قيمـة سـوقية لنـادي كـرة قـدم عراقـي هـي 3 ملايـين دولار، وهـو نـادي الشرطـة المموَّل مـن وزارة الداخليـة، بحيـث أنّ ميزانيـات أنديـة الـدوري الممتـاز، وهـي 20 ناديـاً، لا تتجـاوز سـقف الثلاثـين مليـون دولار سـنوياً.

تونس

مطالبة بالعدالة لعمر العبيدي، مشجع كرة قدم تونسي تسبب رجال الشرطة بموته «على وجه الخطأ» في آذار *2018*. *(فايسبوك)*

كرة القدم في تونس: السلطة والجمهور يتنازعان الملعب

محمد رامي عبد المولى

كاتب وباحث من تونس، من فريق «السفير العربي»

تفضح «اللعبة» سعي السلطة السياسية إلى التحكّم والمراقبة والإخضاع والتجيير. وهي مرآة تعكس أمراض البلاد (ديكتاتورية، تفاوت طبقي، نزعات جهوية، فساد) وكذلك وجهها الجميل: مريدوها المتيمون والغاضبون (بعنف أحياناً) والمقاوِمون والمبدِعون. تواجه السلطات في تونس اليوم أجيال المشجِّعين الأكثر صدامية في تاريخ كرة القدم في البلاد. ما يطالب به الألتراس هو نفسه ما يطالب به أغلب التونسيين: حقهم في الكرامة والبهجة.

خلال مونديال قطر 2022، لفتت الجماهير التونسية انتباه المتابعين بصخبها - داخل وخارج الملعب - وأساليب تشجيعها لفريقها الوطني وكذلك لفتاتها المتكررة إلى فلسطين وقضيتها سواء بالأهازيج أو باللافتات والأعلام وحتى باقتحام الملعب لرفع الراية الفلسطينية. هذا التوهج ليس بغريب عن التونسيين الذين «يتنفسون» كرة قدم ولا يتعاملون معها كمجرد رياضة.

دخلت كرة القدم إلى تونس في أواخر القرن التاسع عشر مع المستعمرين الفرنسيين، وسرعان ما تحولت إلى «غنيمة حرب» استولى عليها المحليون ووضعوا عليها بصمتهم لتبدأ قصة من العشق مستمرة منذ أكثر من قرن، كتب أول سطورها مناضلون سياسيون ومثقفون و«أعيان» واستلمتها من بعدهم أجيال وفئات شعبية أخرى لتصل ذروتها مع «الألتراس» بقدوم الألفية الثالثة. عشق لطالما كان على خط التماس مع السلطة والسياسة.

موجز التاريخ السياسي والاقتصادي لكرة القدم التونسية

إلى حدود نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت فرق كرة القدم حكراً على المستعمِرين الفرنسيين والأوروبيين. وحتى عندما حاول التونسيون تأسيس فرق خاصة بهم، سعت السلطات الاستعمارية إلى عرقلتهم، وعندما رخصت لأول فريق تونسي - «الترجّي الرياضي» - في سنة 1919، فرضت فرنسياً على رأس الإدارة، ثم تراجعت عن ذلك وسمحت للتونسيين بتأسيس وإدارة فرق رياضية. والملاحظ أنّ الفرق التي ظهرت في فترة ما بعد الحربين العالميتين كانت حريصة على إظهار هويتها الوطنية في تسمياتها، أمثال الترجّي الرياضي التونسي، والنادي الإسلامي (النادي الأفريقي حالياً)، والنادي التونسي (الصفاقسي حالياً)، وغيرها. كان أغلب الجيل الأول من مؤسسي الفرق التونسية ينتمي إلى الفئات المثقفة والطبقات المرفهة نسبياً، وهي الأوساط نفسها التي ستلعب دورا هاماً في تأسيس «الحزب الحر الدستوري» سنة 1920، الذي سيصبح بعد سنوات قائد معركة التحرر الوطني ضد الاستعمار الفرنسي. ومنذ الثلاثينيات، سعى الحزب الدستوري إلى التموقع في كل مفاصل المجتمع ومختلف أوجه الحياة اليومية، ولم تغب عنه أهمية فرق كرة القدم.

بعد الإستقلال وسيطرة الحزب الدستوري بقيادة الحبيب بورقيبة على السلطة، لم تنقطع الصلة بين السياسي والرياضي. ففي 1961 - وهي سنة مفصلية في تاريخ تونس فرضت فيها السلطة نظام الحزب الواحد والإعلام الموجه التابع للحاكم - أصدر رئيس الجمهورية قراراً يقضي بحل فريق «النجم الرياضي الساحلي» لأن جماهيره اشتبكت مع رجال الشرطة في الملعب وخرجت للاحتجاج في الشارع غَضَباً مما اعتبرته انحيازاً من الحكم للفريق المنافس، «الترجّي الرياضي»، الذي يَنظر إليه جزء هام من جمهور كرة القدم في تونس على أنه «فريق السلطة». كانت تلك «فركة الأذن» الأولى من السلطة للفرق الرياضية وتنبيه لمن يحاول الخروج عن النظام. وفي 1971، اندلعت أيضاً احتجاجات من قبل جماهير «الترجّي الرياضي» اعتراضاً على قرارات لجامعة كرة القدم، فقررت وزارة الداخلية تجميد نشاط الفريق ولم تتراجع عن قرارها إلا بأمر من رئيس الجمهورية. ويبدو أنّ السلطة استشعرت خطر غضب جماهير كرة القدم وإمكانية انتقال عدواه إلى الشارع، فشجعت بعث «خلايا أحباء» مهمتها «تأطير» مشجعي الفرق، كما حرصت على أن يكون رؤساء النوادي من المنتمين إلى الهياكل العليا للحزب الحاكم وحتى من أعضاء الحكومة.

في فترة حكم بن علي، ستتعزز هيمنة السلطة على الرياضة واستعمالها كمنصة دعائية. لكن على الرغم من بعض «الإنجازات»، فإن كرة القدم في تونس تضررت كثيراً خلال عهد بن علي بسبب استشراء الفساد ومحاباة

السلطة لفرق على حساب أخرى، خاصة وأنّ زوج ابنته سليم شيبوب تولى رئاسة أكبر الأندية التونسية، «الترجّي»، من سنة 1989 إلى 2004 وكان يتمتع بصلاحية مطلقة للتدخل في كل ما يهم الشأن الرياضي.

حتى على المستوى الاقتصادي، تعكس كرة القدم التونسية مظاهر اللاعدالة وفشل الخيارات الاقتصادية الكبرى للبلاد، حيث ظلت الثروة والحيوية الاقتصادية والاهتمام الرسمي تتركز على مناطق بعينها. شهدت تونس 67 موسماً رياضياً منذ الاستقلال (1956). «الأربعة الكبار»، وهي فرق أكبر المدن التونسية وأغناها استأثرت بـ60 لقباً: 32 للترجّي الرياضي التونسي (العاصمة تونس، الشمال الشرقي)، 11 للنادي الأفريقي (العاصمة تونس، الشمال الشرقي)، 9 النجم الرياضي الساحلي (مدينة سوسة، الوسط الشرقي) و8 للنادي الرياضي الصفاقسي (مدينة صفاقس، الوسط الشرقي).

حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت فرق كرة القدم حكراً على المستعمِرين الفرنسيين والأوروبيين. وحتى عندما حاول التونسيون تأسيس فرق خاصة بهم، سعت السلطات الاستعمارية إلى عرقلتهم، وعندما رخصت لأول فريق تونسي -«الترجّي الرياضي»- في سنة 1919، فرضت فرنسياً على رأس الإدارة، ثم تراجعت عن ذلك وسمحت للتونسيين بتأسيس وإدارة فرق رياضية.

وفي حين تنشط بعض الأندية في مدن لديها بنية تحتية رياضية متطورة ومتعددة (نسبياً طبعاً)، تتدرب أغلب الفرق وتلعب في ظروف مخجلة. نوادي المدن الكبرى - أساساً الأربعة الكبار - لها شعبية كبيرة وجماهير واسعة، توفر لها دعماً مادياً، بالإضافة إلى ما تكسبه من مشاركتها وفوزها في المنافسات المحلية والقارّية وعقود الإعلانات والنقل التلفزي ومداخيل تذاكر المقابلات. أما النوادي الصغيرة، خصوصاً التي تنشط في المناطق الداخلية الفقيرة، فهي تعيش على منح ومساعدات من السلطات الجهوية والمركزية وبعض الدعم المالي من الأحبّاء الميسورين. اعتماد نظام «اللاهواية» سنة 1995 ثم نظام الاحتراف[1] سنة 2005 هو ما قصم أظهر أغلب الجمعيات المتوسطة والصغيرة، لتتكرس هيمنة الأربعة الكبار. حتى الفرق التي تتبع مؤسسات القطاع العام والتي كانت حتى حدود التسعينيات من القرن الفائت تنشط في دوري النخبة وتضيف إليه نكهة خاصة، لم تقدر على الصمود أمام سيطرة المال ورجال الأعمال على كرة القدم.

الممارسات السلطوية واللاعدالة الاقتصادية أججت الحساسيات «الجهوية» (المناطقية) في البلاد وساهمت في احتقان الأجواء في المدارج بين الفرق. ومنذ أواخر التسعينيات الفائتة، بدأ العنف يزداد حدة في الملاعب وبدأت الشعارات والأهازيج تتسيس أكثر فأكثر، وتوجه رسائل إلى السلطة، خاصة مع دخول «لاعب» جديد على الخط: مجموعات «الألتراس».

1- قبل سنة 1995 كانت ممارسة كرة القدم في تونس للهواة، يعني يمكن للاعب أن يشترك في فريق كبير ويلعب يوم الأحد ويعمل باقي الأسبوع في مهن مختلفة. وكان هذا ينطبق حتى على الإطار الفني والاداري وكان عددهم محدوداً، وكانت مصادر دخل الفريق/الجمعية محدودة وتعتمد على التمويل العمومي والتبرعات. في بداية تسعينيات القرن الفائت اتخذ القرار باعتماد النظام الاحترافي وفق عقود قانونية تضبط الواجبات والحقوق والأجور والمنح، وتستوجب تفرغ المتعاقدين لممارسة كرة القدم، كما توفر بنى تحتية معينة مقابل امتيازات مثل حصة من حقوق البث التلفزي للمقابلات وتذاكر الدخول إلى الملعب، الخ. وبما ان أغلب الفرق التونسية لم تكن مؤهلة لمثل هذا التحول السريع، اعتمد «نظام اللاهواية» كمرحلة انتقالية أي انه كان نظام احترافي بشروط مخففة.

الألتراس أكبر من أن يسعهم ملعب

انطلاقاً من أواسط تسعينيات القرن الفائت، بدأت تتشكل ملامح جنينية لثقافة الألتراس في مدارج الملاعب التونسية. لكن الظهور الرسمي والمنظم لمجموعات الألتراس في البلاد أتى مع بداية الألفية الثالثة، لتصبح تونس رائدة ثقافة الألتراس في العالم العربي وأفريقيا. تكاثرت المجموعات بمرور السنوات، لكن عددها ظل محدوداً نسبياً في فترة حكم بن علي، وشكلت ثورة 2011 مرحلة جديدة في تاريخ ألتراس تونس، ليس فقط على مستوى عدد المجموعات الذي تضاعف، بل أيضاً على مستوى انتشار ثقافتهم. أكثر من ستين مجموعة ألتراس تونسية ظهرت منذ سنة 2002، وتحتكر الفرق الأربعة الكبار - خاصة «الترجي» و«الأفريقي»- قرابة نصفها في حين تتوزع البقية على أكثر من عشرين فريقاً. بعضها ما زال ينشط منذ عقدين، وبعضها الآخر لم يدم وجوده أكثر من بضعة أشهر. كما أنّ حجمها وإشعاعها يتسمان بتفاوت كبير يرتبط بحجم وإشعاع الفريق الذي تشجّعه والثقل الديمغرافي للمدن وكذلك الأسبقية في الوجود. وبعض المجموعات تضم عشرات أو مئات الأعضاء وبعضها الآلاف.

سنحاول فيما يلي إعطاء صورة شاملة عن مجموعات الألتراس في تونس، ليس فقط بوصفها أطراً لها هياكل وهويات وقواعد خاصة، بل أيضا كتعبير فنيّ وظاهرة سياسية واجتماعية.

1. هيكلة المجموعات

ليست هناك هيكلة مثالية أو ثابتة لمجموعات الألتراس في تونس كما في العالم، لكن هناك نماذج متشابهة مع اختلافات بين الدول وحتى بين المجموعات في البلاد نفسها والتابعة للفريق نفسه. وحسب الباحث محمد فخر الدين اللواتي، فإن هناك نموذجين مهيمنين في تونس. الأول عمودي بامتياز، إذ نجد في أعلاه «الكابو» (Capo أي القائد بالإيطالية) وتحته النواة (Noyau) ثم مجموعة وسيطة تسمى الـStaff وبعدها المشرفون على القطاعات أي المناطق التي توجد فيها فروع لمجموعة الألتراس (chefs de secteurs)، وأسفل الهرم بقية الأعضاء. يعتبِر الباحث أن هذا النموذج هو الأكثر انتشاراً في تونس خاصة في مجموعات الألتراس الأقدم والأكثر شعبية، ويرى أنّه «يعتمد على هرمية في هيكلة التنظيم ومركزية في أخذ القرار، ويرتكزُ على «كابو» لقيادة المجموعة»[2].

2. عناصر الهوية

المكون الأول للهوية هو بالطبع الإسم. وأغلبية مجموعات «الألتراس» في تونس أطلقت تسمياتها بالانجليزية أو الإسبانية والإيطالية، ربما لتأكيد انخراطها في حركة عالمية/معولمة وانتمائها إلى إرث الألتراس الأمريكي الجنوبي والإيطالي. اللغة الفرنسية متوسطة الحضور، أما العربية فهي شبه غائبة. وتستلهم مجموعات «الألتراس» أسماءها من عدة مصادر:

- الألوان المميزة للفريق
- إسم الفريق أو مدينته الأم.
- معجم القوة والحرب والشجاعة: Fedayn Espérantistes, Pirates, Brigade rouge, Power Marines...

2- محمد فخر الدين اللواتي، «ثقافة الألتراس في تونس»، المرصد الوطني للشباب، تونس، 2021.

- معجم الأخويات والعصابات: تحضر كلمة Boys (الفتية/الأولاد، بمعنى المجموعة المنظمة) في تسميات أكثر من عشر مجموعات ألتراس ونجدها أحياناً باللغة الإسبانية مثل مجموعة Chicos Latinos.

- معجم الملاعب والمشجعين: وتشير إلى المواقع التي يحتلها أعضاء الالتراس في مدرجات الجمهور وهي عادة «الكورفا» (Curva أي المنعرج بالايطالية) الجنوبية والشمالية.

اللوغو هو العنصر الثاني في هوية مجموعة الالتراس، ويجب أن يختزل عدة عناصر في آن واحد: إسم المجموعة وتاريخ ولادتها، والألوان المميزة للفريق الذي تشجعه، و«التميمة» (mascotte). وتحضر في الكثير من اللوغوهات صورة المقاتلين شديدي البأس من التاريخ القديم أو الحديث، بالإضافة إلى شخصيات مستوحاة من المسلسلات والسينما العالمية. وأحياناً تتمثل التميمة في «الصورة النمطية» لعضو الألتراس الذي يخفي ملامحه بغطاء للرأس ولفاع. وبعض المجموعات تختار حيواناً مخيفاً و/أو يرمز للقوة مثل كلب «البولدوغ» أو الأسد، أو النسر، أو تكتفي بالرموز مثل الدرع أو الرماح أو السيوف أو قبضة التحدي أو الجمجمة.

ثالث العناصر وربما أهمها، بما أنه مرتبط بولادة مجموعة الألتراس و«موتها»، هو «الباش» (Bâche) وهي قطعة قماشية أو بلاستيكية مستطيلة يظهر فوقها إسم المجموعة وألوانها المميزة واللوغو وغيرها من العناصر المعبِّرة عن هويتها. لا يمكن أن تحصل مجموعة ألتراس على الاعتراف الحقيقي إلا عندما ترفع «الباش» المميز لها لأول مرة في المدرجات. وعندما تستولي مجموعة ألتراس على «باش» مجموعة أخرى وترفعه/تعلقه مقلوباً في مدرجات ملعب، يتوجب على المجموعة التي خسرت «باشها» أن تحل نفسها.

3. الألتراس كتعبير فني

التعصب لفريق رياضي ليس حكراً على الألتراس، وكذلك الانضمام إلى هيكل مشجعين والصدام مع الشرطة. ما يميز مجموعات الألتراس حقيقة هي أشكال التعبير عن هويتها وثقافتها، خاصة في بُعدها الجمالي الإبداعي. يوم المباراة هو بمثابة عرض فرجويّ تتواصل تحضيراته لأيام: الأهازيج، الطبول، اللافتات، الشماريخ...

> **الجيل الأول من مؤسسي الفرق التونسية ينتمي إلى الفئات المثقفة والطبقات المرفهة نسبياً، وهي الأوساط نفسها التي ستلعب دور هاماً في تأسيس «الحزب الحر الدستوري» سنة 1920، الذي سيصبح بعد سنوات قائد معركة التحرر الوطني ضد الاستعمار الفرنسي.**

يحتل أفراد الألتراس مواقعهم مرتدين المنتجات التي تحمل ألوان ورموز الفريق والمجموعة، حاملين معهم طبول «الحرب» ومضخِّمات الصوت و«الشماريخ». يعلقون «باشاتهم» المميزة فوق الأسيجة والجدران ويرفعون يافطات تحمل رسائل متنوعة، ثم ينطلقون في التشجيع دون توقف حتى تنتهي المباراة.

وتكون التحضيرات والجهود أكثر أهمية عندما يتعلق الأمر بـ«العرض الكبير» أي ما يسميه الألتراس «الدخلة». وهي مشهدية سمعية بصرية أهم عناصرها الـ«تيفو» (Tifo) وهو بمثابة لوحة ضخمة مرسومة على القماش أو مَحْمل آخر.

العناصر البصرية الرئيسية في «التيفو» مستلهَمة من مصادر متعددة أهمها الشخصيات المقاتلة والعنيفة، الطيبة منها والشريرة، الحقيقية منها والأسطورية، والمستلهَمة من أفلام المافيا والأكشن وعالم «الانمي» والمسلسلات التلفزية العالمية الشهيرة، الخ.

تيفوهات الألتراس تنتصب على المدارج.

4. الأهازيج والأغاني

تشكّل الأهازيج والأغاني مكوِّناً ثابتاً في ثقافة الألتراس داخل وخارج الملعب، وإذا ما كانت السلطات الأمنية قادرة على مصادرة لافتات الألتراس وأعلامهم، فهي لا تقدر على مصادرة كلماتهم وألحانهم. تعبر هذه الأهازيج عن معيش عضو الألتراس، عشقه لفريقه واستعداده لبذل الغالي والنفيس في سبيله. تحاول ان تشرح للسامع أسباب تعلّق الشباب بثقافة الألتراس وماذا يعيشون ويحسون وهم في مدارج الملاعب. وتفضح قمع قوات الأمن لمجموعات الألتراس وتتغنى بالعداوة «الأبدية» بينهما، وتتوجه برسائل حادة إلى السلطة السياسية الفاسدة والأثرياء الذين يسرقون كرة القدم من الفقراء.. وطبعاً لا تنسى فلسطين وبقية المضطهَدين في العالم.

وهنا مقاطع من أهزوجة «يا حياتنا» لمجموعة African Winners المشجِّعة للنادي الأفريقي، وهي بلا منازع الأهزوجة الأشهر في تونس نظراً لطابعها السياسي القوي:

«غناياتنا

علفريقي والربحة إلي زهاتنا

عالحرية و البلاد إلي نساتنا

علمظلومين و الدولة إلي خلاتنا

عالحق إلي يبقى رقبة بيناتنا»

أغنياتنا

عن النادي الأفريقي وانتصاراته التي تبهجنا

عن الحرية والبلاد التي نسيتنا

عن المظلومين والدولة التي تخلت عنا

عن الثأر الذي يبقى ديناً في رقابنا.

«الحالة

سرقة وغورة وهوما يحبو لحصانة

في كل دورة لحاكم رشوة وجعالة

شحال من حومة عايشة تهميش وبطالة

ناس مقهورة صارت زطلة وسكارى»

إنهم يسرقون ويستولون ويريدون التمتع بالحصانة

في كل منعطف تجد قوات أمن فاسدة ومرتشية

كم من حي يعيش التهميش والبطالة

يغرق سكانه المقهورون في ادمان المخدرات والكحول.

«بعتوها

نهبتو ملاين للبراني عطيتوها

ورخيتو لعين السرقة دعمتوها

دخلتوا لكوكة لبلاد فزدتوها

هججتو الناس للغربة لزيتوها»

بعتموها

نهبتم الملايين ونقلتموها إلى الخارج

تغاضيتم عن السرقة ودعمتموها

أدخلتم الكوكايين إلى البلاد فأفسدتم حالها

دفعتم الناس إلى مغادرة البلاد والعيش في غربة.

«منظومة

نكرهوكم رحمة معاكم معدومة
***jamais* ننسى اللي ماتو في الكميونة**

لميمة خذات وليدها في كرذونة

حرام يموتو تبقاو عايشين نتوما»

المنظومة

نكرهكم، فأنتم عديمو الرحمة

أبداً لن أنسى اللواتي مِتْنَ في حادثة الشاحنة (عاملات فلاحيات يركبن وسائل نقل غير آمنة)

والأم التي استلمت رضيعها في علبة كرتونية

حرام أن يموتوا وأن تظلوا أنتم على قيد الحياة.

«يالقاضي

طالبين الحق ملينا كلام الفاضي

اخرتها موت و بحكم ربي راضي

غير الكورفا لتداويلي أمراضي

نحاربو السيستام كيما درنا في الماضي»

أيها القاضي

نطالب بالحق، مللنا الكلام الفارغ

كلنا سنموت، وأنا راض بحكم الله

وحدها «الكورفا» قادرة على علاج أمراضي

نحارب النظام كما فعلنا في الماضي.

5. الغرافيتي

لا تقتصر التعبيرات الفنية لمجموعات الألتراس على الملعب، بل تمتد إلى خارجه لتكسر بياض شوارع المدينة. الغرافيتي هو التعبير الأبرز، وقد أسّس سقوط بن علي ومعه تحرير الفضاء العام إلى انطلاقة جديدة لثقافة «الألتراس»، تزامنت مع ازدهار فنون الشارع وحرية التعبير في البلاد.

عينة من الغرافيتي.

وهكذا أصبح للألتراس متسعٌ لإنجاز رسمات الغرافيتي الملونة ثم الجداريات الضخمة، وفُتح الباب أمام تنافس إبداعي بين مختلف المجموعات.

لا عدالة... لا سلام

منذ نحو ربع قرن، اقتحم «الألتراس» المشهد السياسي - الإجتماعي في تونس، متجاوزاً مساحات الملاعب. وعلى الرغم من القصر النسبي لهذه المدة، فيمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

تشمل المرحلة الأولى العقد الأخير من حكم بن علي، أي من 2000 إلى 2010. في تلك الفترة، بدأت مجموعات الألتراس بالظهور تباعاً وأغلبها يشجع من «الأربعة الكبار»، وتطوَّر حضورها تدريجياً في الملاعب لكن دون أن

يصل إلى مستوى حضور الألتراس في أوروبا وأمريكا الجنوبية. فالقبضة الحديدية لنظام بن علي البوليسي ولئِن تسامحت في البداية مع الظاهرة الجديدة إلا أنها وضعت لها حدوداً. هذه الحدود ستكسر لأول مرة في 8 نيسان/أبريل 2010، عندما اندلعت مواجهات حادة بين مشجعي فريق «الترجّي» (ومن بينهم الألتراس) وقوات الأمن التي مارست العنف الشديد لـ«ضبط» الجماهير. فقبل تلك «الواقعة»، كان العنف الجسدي حاضراً في المدارج لكنه يدور في أغلب الأحيان بين جماهير الفرق المتنافسة، أما العنف تجاه السلطة فكان لفظياً وبالتلميح.

الممارسات السلطوية واللاعدالة الاقتصادية أججت الحساسيات «الجهوية» (المناطقية) في البلاد وساهمت في احتقان الأجواء في المدارج بين الفرق. ومنذ أواخر التسعينات الفائتة، بدأ العنف يزداد حدة في الملاعب وبدأت الشعارات والأهازيج تتسيس أكثر فأكثر، وتوجه رسائل إلى السلطة، خاصة مع دخول «لاعب» جديد على الخط: مجموعات «الألتراس».

سقوط بن علي في كانون الثاني/ يناير 2011 مثّل ولادة جديدة لثقافة الألتراس في تونس. على المستوى العددي حصل ما يشبه الانفجار، فحتى الفرق الصغيرة في الدوري الممتاز والدرجات الأخرى بدأ مشجعوها في تأسيس مجموعات ألتراس. هذا الانتشار الواسع حدث على الرغم من محاولات الحكومات والسلطات الأمنية التضييق على الألتراس والجماهير عموماً. فبين كانون الأول/ديسمبر 2010 وتشرين الثاني/نوفمبر 2012، مُنع الجمهور من حضور مباريات كرة القدم بدعوى «هشاشة الوضع الأمني»، ثم سُمح بدخول الجمهور باستثناء من هم دون الـ20 عاماً (ثم ال 18عاماً). ساهم وضع روادع لمشاركة الألتراس في الملاعب في تفاقم نقمتهم ضد السلطة، ولكنه عزّز حضورهم في الشارع كبديل عن الملعب من خلال التعبيرات الفنية وكذلك المشاركة في الحراكات الاجتماعية.

المرحلة الثالثة، والتي لا تزال مستمرة، بدأت في 31 آذار/مارس 2018. في ذلك اليوم، أقيمت في «ملعب رادس» مباراة بين «النادي الافريقي» و «أولمبيك مدْنين» انتهت بأعمال عنف وقمع بوليسي كبير للمشجعين. لم يكتف رجال الشرطة بتعنيف الجماهير في مدارج الملعب، بل طاردهم خارجه. أحد المطاردين، واسمه عمر العبيدي، وقع في أيدي رجال الأمن، وقام أحدهم بإلقائه في مياه «وادي مليان». لم يكن عمر يتقن السباحة وصاح يستغيث لكن رجال الأمن سخروا منه قائلين «تعلم عوم» (تعلَّم السباحة) حسب رواية شهود عيان. في آخر الأمر جرفت المياه عمر ومات غرقاً في سن الـ19. وتجدر الإشارة إلى أنّ عمر كان عضواً في مجموعة ألتراس مشجِّعة للنادي الأفريقي.

شكلت ثورة 2011 مرحلة جديدة في تاريخ ألتراس تونس، ليس فقط على مستوى عدد المجموعات الذي تضاعف، بل أيضاً على مستوى انتشار ثقافتهم. أكثر من ستين مجموعة ألتراس تونسية ظهرت منذ سنة 2002، وتحتكر الفرق الأربعة الكبار -خاصة «الترجّي» و«الافريقي»- قرابة نصفها في حين تتوزع البقية على أكثر من عشرين فريق.

أثارت هذه الجريمة المرتكَبة بدم بارد غضب الرأي العام وليس فقط مجموعات الألتراس، وانتشر هاشتاغ ≠تعلم_عوم في وسائل التواصل الإجتماعي. وبفضل ضغط جماهير كرة القدم وتجنّد منظمات من المجتمع المدني وعدد كبير من المحامين، نُقل الملف إلى المحاكم. وبعد أكثر من أربع سنوات من الجهود المضنية وجهت المحكمة الابتدائية تهمة القتل «على وجه الخطأ» إلى 12 من أفراد الشرطة متورطين في القضية.

مـوت عمـر سـمم الأجـواء أكـثر في الملاعـب وتواتَـرت المواجهـات العنيفـة، حتـى أن السـلطات قـررت في 2019 منـع الجمهـور مـن التواجـد في المـكان الـذي تحتلـه عـادة مجموعـات الألـتراس. وتنامـت نقمة شـباب الألـتراس عـلى «الحاكم» (قـوات الأمـن كـما يسـميها التونسـيون) ليبقـى الـصراع قائمـاً.

غرافيتي يظهر فيه وجه عمر العبيدي وهاشتاغ # تعلم_عوم.

ليسـت مجـرد لعبـة... دائمـاً مـا فضحـت كـرة القـدم سـعي السـلطة السياسـية إلى التحكـم والمراقبـة والاخضـاع والتجيـير. وهـي مـرآة تعكـس أمـراض البـلاد (ديكتاتوريـة، تفـاوت طبقـي، نزعـات جهويـة، فسـاد) وكذلـك وجههـا الجميـل: مريدوهـا المتيمـون والغاضبـون (بعنـف أحيانـاً) والمقاوِمـون والمبدِعـون. تواجـه السـلطات في تونـس اليـوم أجيـال المشـجعين الأكـثر صداميـة في تاريـخ كـرة القـدم في البـلاد، وليسـت السياسـات الأمنيـة القمعيـة هـي التـي سـتُهدئ الأجـواء. مـا يطالـب بـه أغلـب شـباب الألـتراس هـو بالضبـط مـا يطالـب بـه أغلـب التونسـيين: حقهـم في الكرامـة والبهجة.

مصر

دخول ألتراس «الأهلي» قبل إحدى المباريات: «الكرة للجماهير»، وقد كُوِّنت الجملة على المدرجات بكل لغات الأرض.

الكُرة المصرية: متنفسٌ للناس وعزاءٌ لهم

رباب عزام

صحافية من مصر

اقترن إسم «الأهلي» طوال تاريخه بكونه فاعلاً وطنياً: رفض المشاركة في مسابقات «الإتحاد المختلط» التي كانت تدار بواسطة الأجانب. وخرج مشجعوه في تظاهرات شعبية عقب كل انتصار لناديهم على فريق بريطاني. كما كان أعضاء «الأهلي» في طليعة الفدائيين في حرب فلسطين 1948، وتحولت ملاعبه في حرب السويس 1956 وحرب 1967 إلى مراكز تدريب أفراد المقاومة الشعبية.

حظيت كرة القدم باهتمام المصريين من الطبقات الفقيرة منذ نهايات القرن الـ19، وتبنوها باعتبارها مجالاً للتنافس مع البريطانيين وفرصة استثنائية لإظهار الهوية الوطنية المحلية، وقد اكتنفت في داخلها تلك الطبقات في مقابل رياضات الأثرياء لتتحول النظرة إلى كرة القدم من رياضة تعبر عن ثقافة الآخر (البريطانيين) إلى ذراع شعبي للحركة الوطنية، ويخرج المصريون عبرها من بوتقة الشعور بقهر المستعمر إلى محاولة مقاومته بسلاحه نفسه. وهي مذاك لم تكف عن كونها أداة «سياسية» بالمعنى النبيل للكلمة.

كانت كرة القدم في بدايتها الحديثة (ظهرت قبل الميلاد في الصين ومصر القديمة ثم انتقلت إلى الإغريق فالرومان) أداة استعمارية، استخدمت في تثقيف وضبط العمال والجنود المصريين في معسكرات الاحتلال. لكن سرعان ما استخدمتها الحركات الاستقلالية، لتغدو الحارات والأزقة ملاعب رياضية وفضاءات اجتماعية هامة. وما بين احتلال مصر في العام 1882 والعام 1895، اعتبرت الأغلبية كرة القدم إحدى وسائل المحتل للتأثير في محتليهم، فقاوموها، حتى إن جريدة الأهرام في شباط/فبراير وآذار/مارس من العام 1892 كتبت تحذِّر الناس من الانسياق وراء «لعبة الإنجليز». ولقي قرار وزير المعارف بإدخال التربية البدنية وكرة القدم كدرس إلزامي في المدارس، استهجاناً شديداً، ووُصف بأنه خطة لمنع صناعة نخب محلية من خلال فرض قيم التعليم الإستعماري[1].

وهكذا استمر الوضع حتى العام 1895، حين نظر بعض المصريين للعبة ولأول مرة على أنها أداة مقاومة. ففي معسكر الجيش البريطاني في العباسية بالعاصمة القاهرة، وقف محمد أفندي ناشد يتأمل جنود الإحتلال يلعبون الكرة. وفي داخله نمت فكرة مبتكَرة لمقاومةٍ دون نزف أو بنادق. فقد استوعب أنه يجب أن يروِّض لعبة المستعمِر ويسهم في نشرها بوصفها تحدياً رمزياً له وأداة للتنظيم والتثقيف الجماهيري، فكوّن التيم المصري ثم أعلن التحدي وانتصر على فريق «الأورانس» ممثل الجيش البريطاني، لتصبح تلك المباراة بمثابة انطلاقة لتاريخ اللعبة في مصر، ورمز مقاومة.

وقد ظلت الأمور ضبابية ما بين منحازين أو رافضين لكرة القدم حتى العام 1907 حينما تقرر تأسيس النادي الأهلي. ثم تحولت اللعبة وفق سياقات محددة إلى «أفيون شعبي».. فكيف تم ذلك؟

الوطني

في العام 1943، طلب مفتي القدس أمين الحسيني من فؤاد سراج الدين، رئيس النادي الأهلي ووزير الداخلية، استضافة فريق الكرة في جولة داخل فلسطين انتصاراً للمقاومة ضد السياسات البريطانية والحركة الصهيونية. وافق الرئيس وقائد فريقه «مختار التتش». لكن الملك والاحتلال وحيدر باشا - رئيس نادي «المختلط» و«الاتحاد المصري لكرة القدم» - رفضوا.

وتحايل الأهلي على المنع وسافر إلى فلسطين مدة 23 يوماً تحت اسم «نجوم القاهرة». ثم عاد الفريق وقد فرضت عليه عقوبة تجميد النشاط لأشهر لم تنته إلا بتظاهرة شعبية ضخمة إلى قصر عابدين، تهتف ضد الملك والإحتلال، ما أخاف الملك فأمر بفك الحظر فوراً. وكيداً في الأهلي، قرر حيدر باشا إقامة مباراة نهائي كأس مصر المؤجلة بين الأهلي وغريمه «المختلط»، في وقت تطبيق عقوبة التوقيف للاعبين ممن سافروا إلى فلسطين، ليلعب

1- صدر القرار بتعديل خطة الدراسة في المدارس المصرية، بقصد إقرار تدريس الجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية باللغة الإنجليزية، وإلغاء الوقت المخصص لدراسة اللغة التركية ثم إضافة ساعتين كل أسبوع للرياضة البدنية. وكانت خطة بريطانية بالفعل لتقليل عدد ساعات التعليم المعتمدة، ما دفع بـ«مجلس شورى القوانين» لأن يعترض بعد سنتين من صدور القرار على الوزارة التي أهملت شئون التعليم.

الأهـلي بالناشـئين وينهـزم، لكنـه انهـزام بمـذاق النـصر. اسـتمر الأهـلي في ترديـده كتأكيـد عـلى «وطنيتـه»، بينـما الزمالـك دائمـاً مـا يلـوح بالهزيمـة كدليـل تفـوق كـروي.

أول فريق كرة للنادي «الأهلي» في العام *1911*.

دعوة للمساهمة في تأسيس النادي في العام *1907*. *(الموقع الرسمي للنادي «الأهلي»)*

واشـتهر في مـصر نشـيد يتغنـى بشـجاعة فريـق «الأهـلي» لدعمـه فلسـطين ومناهضـة الحركـة الصهيونيـة، والنشـيد بعنـوان «أسـاطير الأهـلي» يسـتحضر الأشـخاص القيّمـين عـلى النـادي:

«عمر لطفي ده محامي وكان ثوري

حارب الاحتلال وكان مناهض ليه

ناضل على الإستقلال بنى النادي الأهلي

كان حلم عمره يكون أول نادي وطني

مختار التيتش في تلاتة وأربعين

حارب الملك سفرنا لفلسطين

والستة صفر دى شرف ليوم الدين

موقف مختار وحيدر تاج على راس الأهلاوي»

ولنعـد للبدايـة! فقبـل تأسـيس الأهـلي كانـت هنـاك إرهاصـات أولى لتأسـيس أنديـة رياضيـة في مـصر جـاءت جميعهـا

بتدخلات من المحتل، فأسس البريطانيون نادي السكة الحديد في العام 1903 (أول نادي رياضي للعمال)، وسمحوا للعمال المصريين في الورش والمعسكرات بالانضمام. وسبقه في العام 1882 نادي الخديوي للضباط والجالية البريطانية («الجزيرة» حالياً). وقد مُنع المصريون تماماً عن عضويته حتى العام 1956، ثم سُمح فقط للأمراء و«أبناء العائلات» (حتى اللحظة يحمل هذا الطابع ويعد الأعلى في قيمة اشتراكات العضوية والتي وصلت في العام 2023 إلى مليون و500 ألف جنيه للفرد). وكان ذلك من أبرز الأسباب التي دفعت الحركة الوطنية وقتها إلى التفكير في تأسيس نادٍ للطلبة، فتأسس «نادي المدارس العليا» في العام 1905 (نادٍ سياسي)، ثم فكّر عمر لطفي، وكان رئيساً لذلك النادي، في تأسيس أول نادٍ رياضي مصري للمصريين بالكامل في نيسان/أبريل من العام 1907، ليبدأ «الأهلي» ونواته طلبة المدارس العليا، وينتخب سعد باشا زغلول كأول رئيس للجمعية العمومية، وميشيل أنس كأول رئيس للنادي لمدة عام فقط في فترة التأسيس، للاستفادة من نفوذه. وكان ذلك رداً على نشأة الأندية الأجنبية والمختلطة في مصر.

اقترن اسم «الأهلي» طوال تاريخه باعتباره فاعلاً وطنياً، فقد رفض المشاركة في مسابقات الاتحاد المختلط التي كانت تدار بواسطة الأجانب، وكان صاحب فكرة تمصير الاتحادات الرياضية. واحتل مشجعوه حيزاً معتبراً في المجال العام، واعتادوا الانطلاق في تظاهرات شعبية عقب كل انتصار لناديهم على فريق بريطاني. كما شارك أعضاء «الأهلي» في مختلف حروب مصر في القرن الماضي، فكانوا في طليعة الفدائيين في حرب فلسطين 1948، ثم تحولت ملاعبه في حرب السويس في العام 1956 وحرب حزيران/ يونيو من العام 1967 إلى مراكز تدريب أفراد المقاومة الشعبية.

> **في العام 1943، طلب مفتي القدس أمين الحسيني من فؤاد سراج الدين، رئيس «النادي الأهلي» ووزير الداخلية، استضافة فريق الكرة في جولة داخل فلسطين انتصاراً للمقاومة ضد السياسات البريطانية والحركة الصهيونية. وافق الرئيس وقائد فريقه «مختار التتش». لكن الملك والاحتلال وحيدر باشا - رئيس نادي «المختلط» و«الاتحاد المصري لكرة القدم» - رفضوا. وتحايل الأهلي على المنع وسافر إلى فلسطين لمدة 23 يوماً تحت اسم «نجوم القاهرة»..**

وهناك مجريات عديدة أخرى منحت «الأهلي» لقب الأكثر جماهيرية (حسب دراسة محلية في العام 2014، فإن 72 في المئة من مشجعي الكرة في مصر يشجعون «الأهلي» في مقابل 21 في المئة لصالح أقرب منافسيه «الزمالك»، ويتصدر الأهلي قائمة الأندية المصرية والعربية والأفريقية على منصات التواصل الاجتماعي)، ما جعله ظاهرة كروية وجماهيرية «تكاد تكون مُعجِزة غير مفهومة» مثلما وصفها الصحافي فكري أباظة.

الملكي وسرّ العداء التاريخي

يتساءل الكثيرون حول العداء التاريخي بين ناديي «الأهلي» و«الزمالك». ولذلك فلا بد من تحديد السياقات التاريخية والاجتماعية التي تأسس فيها نادي «الزمالك»، حيث دفعت شعبية «الأهلي» المتنامية في القاهرة، البلجيكي «جورج مرزباخ» إلى تأسيس «نادي قصر النيل» في العام 1911، وعرف لاحقاً باسم «نادي القاهرة المختلط»، لأنه سمح للأوروبيين والمصريين معاً بالحصول على عضويته. وكان، بخلاف «الأهلي»، نادياً للطبقة المترفة والمفضل لدى ملك مصر فاروق الذي أعاد تسميته بـ«نادي الفاروق». وظل مقترناً بالملكية حتى نجاح حركة «الضباط الأحرار» في الاستحواذ على الحكم في العام 1952. ومنذ تلك اللحظة تبدل إسمه إلى «الزمالك»

ولقبه «الملكي». وعلى هذا فقد تأسس الناديان وهما مطبوعان بتوجهات وميول سياسية وطبقية. وكمثال إضافي، ففي العام 1916 فاز الزمالك ببطولة الكأس السلطانية والتي تضم أندية مصرية إلى جانب أندية بريطانية، في حين رفض الأهلي اللعب مع أندية استعمارية.

بانر مرفوع في المدرجات بعد مجزرة بورسعيد بحق جمهور «الأهلي».

ولم يكن هناك خلاف مباشر بين الناديين حتى العام 1914، عندما قرّر اللاعب حسين حجازي ترك ناديه الإنجليزي والعودة إلى مصر. هنا اختلف الناديان على ضمّه، واستمر في انتقاله ما بين الناديين حتى اعتزاله اللعب داخل الزمالك. واستمر الصراع قائماً بين نادي الشعب («الأهلي») ونادي الأغنياء («الزمالك») لما يقارب الـ90 عاماً، ثم تأجج بعد فوز «الأهلي» المصري بلقب «نادي القرن الأفريقي» في العام 2000 وتتويجه على رأس الأندية الإفريقية الأكثر حصداً للبطولات القارّية في القرن العشرين، لتزداد حدة العداء بين جماهير الناديين، خاصة بعد مطالبة جمهور «الزمالك» بأحقية ناديه باللقب («الزمالك» كان في المركز السادس حسب تصنيف الإتحاد الأفريقي آنذاك).

وقد تزّعم جمهور «الزمالك» وناديه حملات تتهم «الأهلي» بالفساد، وأن منظومة الكرة في مصر لا تخدم إلا مصالحه، لأنه نادي الدولة المفضّل. وربما يمثل «الأهلي» بالفعل مركز نفوذ داخل الدولة اجتماعياً وسياسياً، نظراً لامتلاكه قاعدة جماهيرية هي الأكبر، ولعلنا ندلل على نفوذ «الأهلي»، بواقعة رفض صالح سليم رئيس النادي استقبال مبارك عقب هبوط الطائرة الرئاسية في أرض النادي على غير رغبته، ثم رفضه توجيهات رئاسية بإقامة مباراة بين القطبين عقب حادث قطار الصعيد في العام 2002.

ولكن العداء بين «الأهلي» و«الزمالك» ليس الوحيد، فهناك بعض الأندية الشعبية في الأقاليم التي تحمل

جماهيرها عداء تجاه «الأهلي» مثل نادي «الإسماعيلي» (تأسس في العام 1924) و«المصري البورسعيدي» (أول نادٍ للمصريين في مدن القناة في العام 1920). وقد نتجت عن ذلك بعض التحيزات من قبل الجماهير لصالح غريم «الأهلي» التقليدي «الزمالك» كرهاً في «الأهلي». في المقابل يظهر تزايد مشجعي «الأهلي» في محافظات الوجه البحري والصعيد.

الكرة بوصفها لعبة طبقية

فكرة لعبة كرة القدم منذ بدايتها كانت لعبة الكادحين، فقد سهل انتقالها من جنود الإحتلال الفقراء إلى قاطني الحارات والأزقة من المصريين الفقراء الذين وجدوا فيها متعتهم بعد عقود طويلة من الحرمان. ولم يكن ذلك غريباً على اللعبة التي لاقت الإنكار الرسمي في الجزر البريطانية نفسها طوال قرون، ووصفت بأنها «رذيلة اجتماعية يمارسها الرعاع وحدهم»، وذلك حسبما وثق الكاتب «إدوارد غاليانو» في كتابه «كرة القدم بين الشمس والظل». فقد نظرت الطبقة المترفة (البريطانية والمصرية) إلى كرة القدم نظرة يشوبها الخجل وزهدت بها باعتبارها تخص الفقراء. وقد أعاد قرار وزير المعارف بإدراجها في المدارس في العام 1892، رسم الخريطة الإجتماعية للكرة في مصر. فالمعتمد البريطاني ألغى مجانية التعليم ولم يبق فى المدارس إلا التلاميذ الذين تستطيع عائلاتهم سداد مصروفاتهم، وبالتالي سنحت الفرصة أمام أبناء الطبقة الثرية لممارسة اللعبة أيضاً، لكن المنظور اختلف لدى كليهما. فالأغنياء رأوها بمثابة تسلية بينما اعتنقها الفقراء كتعبير عن الذات.

> **تأسس «نادي قصر النيل» في العام 1911، وعرف لاحقاً باسم «نادي القاهرة المختلط» لأنه سمح للأوروبيين والمصريين معاً بالحصول على عضويته. وكان، بخلاف «الأهلي»، نادياً للطبقة المترفة والمفضل لدى ملك مصر فاروق الذي أعاد تسميته بـ«نادي الفاروق». وظل مقترناً بالملكية حتى نجاح حركة «الضباط الأحرار» في الاستحواذ على الحكم في العام 1952. ومنذ تلك اللحظة تبدل اسمه إلى «الزمالك» ولقبه إلى «الملكي».**

وظلت كرة القدم متنفساً خاصة لدى الشباب الذين يعانون من الفقر والإقصاء والتهميش الاجتماعي. ولكنها تحولت منذ تطبيق نظام الاحتراف في مصر إلى وسيلة لارتقاء السلم الاجتماعي. ففي أندية مثل «الأهلي» و«الزمالك» يحصل اللاعبون بداية على 7 ملايين جنيه فأكثر للموسم الواحد في مقابل ما يقارب 500 ألف جنيه أو يزيد قليلاً للاعبين في أندية الدرجة الأولى الأقل جماهيرية.

لكن ذلك لم يمنع من أن يبقى تشجيع وممارسة كرة القدم شكلاً من أشكال التمرد الاجتماعي على الأوضاع الناجمة عن التفاوت في الدخل وتوزيع الثروة وتآكل الطبقة الوسطى بسبب تخلي الدولة عن مسؤولياتها الإجتماعية تجاه مواطنيها، فضلاً عن المناخ القمعي واحتكار المجال العام الذي تميز به حكم الرئيس الأسبق حسني مبارك وافتقار النظام للطموح والموارد والمؤسسات اللازمة لاحتضان هؤلاء الشباب الذين شعروا بخيبات وإحباط. وربما يظهر هذا التمرد جلياً في حركات الألتراس التي بزغت في مصر منذ العام 2007، وامتلكت القدرات التعبوية من خلال وسائل التواصل الاجتماعي أو التواصل الشبكي لأعضاء المجموعات. وقد سعت تلك الحركات إلى امتلاك حيز من المجال العام وكسر الحظر السلطوي سواء أكان من النظام نفسه أو من إدارات الأندية. وظهرت كبديل غير تقليدي للتظاهرات وللتعبير علناً في المدرجات، من خلال تبني خطابات متعددة بدأت رياضية وضد «الرأسمالية الكروية» ثم تحولت إلى ثورية احتجاجية (مشاركات ألتراس أهلاوي وزملكاوي

في أحداث ثورة 2011)، فسياسية ودينية (انضمام بعض من ألتراس زملكاوي لجماعات الإسلام السياسي وتكوين مجموعة «حازمون وأحرار»).

وشهدت بطولة الأمم الأفريقية في نسختها للعام 2006، نقطة تحول نوعي جديد داخل المجتمع، حين اجتذبت جماهير جديدة من الطبقة المتوسطة العليا والنساء. ومن الممكن القول إن تلك البطولة تحديداً ساهمت في فتح المجال العام أمام المصريين حين سمحت بتواجد ملايين منهم في المدرجات والشوارع عقب كل مباراة، في وقت منعت فيه التجمعات من الأساس، كما كان من نتائجها ظهور الألتراس في العام التالي. وتحولت كرة القدم بعد ثورة العام 2011 إلى أداة حشد سياسي وتعبئة جماهيرية من خلال فعاليات الألتراس نفسه في مناطق متفرقة. وفي هذا يقول الباحث زياد عقل إن كرة القدم خلقت انتماءً وطنياً لدى المصريين لم تخلقه القوالب السياسية المعتادة، وإن استخدام كرة القدم كأحد آليات صياغة الانتماء الوطني يحدث نظراً لغياب ما يكفي من كيانات جمعية قادرة على التعبير عن هوية محددة.

المدرجات خالية من الجمهور في المباريات المحلية.

من لعبة إلى صناعة

سرعان ما أدركت الأنظمة السياسية قدرة الساحرة المستديرة على صرف الانتباه عن المظالم السياسية والاجتماعية وتنامي الاستياء من الأزمات الاقتصادية والعنف البوليسي. كمثال، اهتم نظام مبارك بحضور الرئيس إلى المدرجات في المباراة النهائية للمنتخب في بطولة أمم أفريقيا 2006، لإلهاء الشعب عقب حادثة غرق عبّارة السلام 98. أيضاً، وُظفت مباراتا مصر والجزائر في العام 2010، لشرعنة الفعل السياسي للدولة. كما استخدمها النظام في الذكرى الأولى لموقعة الجمل (شهدت دفاع الألتراس عن ميدان التحرير والمتظاهرين)، للانتقام من الألتراس في مذبحة

بورسعيد شباط/فبراير 2012[2]. في التوقيت نفسه من العام 2015، وقعت مذبحة أخرى لألتراس «الزمالك» لتنتهي معها ظاهرة الألتراس المصرية، بل ويختفي تواجد جماهير الكرة في المدرجات والساحات العامة، وذلك حتى اللحظة.

وعلى المستوى الاقتصادي، تحولت كرة القدم من لعبة إلى صناعة بعد تطبيق نظام الإحتراف في تسعينيات القرن الماضي، ليؤذن ذلك بولادة جديدة للعبة كمجال جماهيري اختلفت فيه أنماط وقيم التشجيع ومزاجات الاستهلاك الكروي، اعتماداً على الشباب كجمهور مستهلكين وعناصر عاملة تمتلك أدوات العصر الكروي الجديد.

شهدت بطولة الأمم الأفريقية في نسختها للعام 2006، نقطة تحول نوعي جديد داخل المجتمع، حين اجتذبت جماهير جديدة من الطبقة الوسطى العليا والنساء. وتلك البطولة تحديداً ساهمت في فتح المجال العام أمام المصريين، حين سمحت بتواجد الملايين منهم في المدرجات والشوارع عقب كل مباراة، في وقت مُنعت فيه التجمعات من الأساس، كما كان من نتائجها ظهور الألتراس في العام التالي.

وكان صعود الاقتصاد الرياضي قد مهّد لظهور الألتراس في مصر، الذين رفضوا كُلية سيطرة رأس المال على لعبتهم الشعبية. وهم امتداد لمجموعات لتشجيع الأهلي من خارج مصر ظهرت منذ العام 1996، وتبع الظهور تدشين موقع إلكتروني في العام 2005 ورابطة «إيه إف سي»[3]. وفي الوقت نفسه، ظهرت رابطة من مشجعي «الزمالك»، لكن الذي أثار حفيظة الشاب عمرو فهمي[4] ودفعه إلى التفكير في استلهام تجربة «إيطاليا» وتعميم تجربة الألتراس في مصر، هو أن الروابط لم تنجُ من فخ التبعية لقيادات الأندية، وبرزت مصالح مرتبطة بأنشطة ربحية وغير ربحية خارج نطاق الملاعب، ليصبح ظهور الألتراس نوعاً من التمرد على التبعية والأبوية الممارسَين من مجالس إدارة الناديين على الجمهور، الذين رفعوا شعارات «الكرة للجماهير- ضد الشرطة ورأس المال ووسائل الإعلام».

ومنذ العام 2006، ازدادت الاستثمارات في الإعلام الرياضي وارتفع ثمن الدوري المصري لدى الشركات الراعية (في العام 2020 حل الدوري المصري وصيفاً في قائمة أغلى الدوريات الأفريقية بواقع ما يقارب 138 مليون يورو، بينما قدرت حجم اقتصاديات كرة القدم في مصر بنحو 1.250 مليار جنيه في العام 2012)، وأرغِم المشجعون على شراء تذاكر بأسعار متزايدة لحضور المباريات.

ودشنت السلطات في العام 2019 منظومة «تذكرتي» للتحكم بنوعية الجمهور، وإعداد قوائم دقيقة بهويات الحاضرين، وأيضاً السيطرة على سوق الملابس والأدوات الرياضية عن طريق احتكار بعض الشركات. وفي وقت سابق، استحدثت بطاقات الاشتراك التلفزيوني لمتابعة المباريات من المنزل عقب احتكار قنوات «إيه آر تي» السعودية لحقوق البث الفضائي لسنوات، ثم انتقل ذلك إلى قنوات بي إن سبورت القطرية، ما تسبب في حرمان الفقراء من متابعة البطولات.

ورغم التوسع الرأسمالي في أنشطة كرة القدم وتحولها إلى سوق يجتذب مستثمرين محليين وأجانب، إلا أن الفوائد

2-إسلام ضيف، «يوم الغدر بجمهور الألتراس»، موقع «السفير العربي»، 08/02/2023.

3- إيه. إف. سي. الأهلي، رابطة مشجعي النادي الأهلي وقد تكونت في العام 2005، ودعمتها إدارة النادي بشكل رسمي حينذاك.

4- كان مدير كرة قدم مصرياً، شغل منصب السكرتير العام للاتحاد الأفريقي لكرة القدم من 2017 إلى 2019. ثم استقال لاكتشافه فساداً ضخماً في المؤسسة. وعُرف كأحد مؤسسي «نادي مشجعي الأهلي» أو ألتراس «الأهلي»، وقد توفي في 2020 شاباً بسبب المرض.

المرجوة من ذلك السوق على الاقتصاد المصري ما زالت منخفضة، فعوائد تلك الأنشطة لا تسهم بأكثر من 2 في المئة من الموارد المالية للدولة. وربما يرجع ذلك إلى قانون الرياضة والذي منح الأندية في السابق حق الحصول على تسهيلات وإعفاءات ضريبية كبرى دون مقابل يُذكر.

أرادت السلطة الحالية استثمار كرة القدم لتحصيل أموال جديدة، مما فتح الباب أمام الاستثمار الأجنبي في كرة القدم المصرية، من خلال تجربة «تركي آل شيخ»، وهو رئيس الهيئة العامة للرياضة في المملكة العربية السعودية، حين اشترى نادي «الأسيوطي» (نادٍ خاص) وحوله إلى نادي «بيراميدز»، ثم دشن قناة تحمل الإسم نفسه في العام 2018. وسرعان ما شارك النادي الجديد في الدوري ونافس على المربع الذهبي. لكن مالكه السعودي خاض صراعاً كبيراً مع «الأهلي» وجماهيره، انتهى بسحبه كافة استثماراته ومغادرة مصر بعد أن أغرق الدوري المصري بأموال طائلة «أفسدته» وعقد صفقات بأرقام خيالية. لكن تجربته فشلت في النهاية.

تريد السلطة الحالية الاستفادة مالياً من كرة القدم، ففتحت الباب أمام الاستثمار الأجنبي. اشترى «تركي آل شيخ»، وهو رئيس الهيئة العامة للرياضة في المملكة العربية السعودية، نادي «الأسيوطي» وحوله إلى نادي «بيراميدز»، ودشن قناة تلفزية في العام 2018. شارك النادي الجديد في الدوري لكن مالكه السعودي خاض صراعاً كبيراً مع «الأهلي» وجماهيره انتهى بسحبه كافة استثماراته ومغادرة مصر.

وعاد ملف الاستثمار الرياضي في مصر إلى الواجهة بعدما أعلن الإماراتي «سالم الشامسي»، المالك الحالي لنادي «بيراميدز»، خلال بيان أصدره مطلع نيسان/أبريل 2023، سحب استثماراته الرياضية من مصر اعتراضاً على ما أسماه «ظلم تحكيمي»، ليعلن فشل التجربة الرياضية الاستثمارية الخليجية للمرة الثانية في مصر[5].

السلطة القائمة التي ترغب في جذب استثمارات وحصاد أموال لتسهيل إقامة مشروعاتها الكبرى، تنظر الآن إلى كرة القدم بوصفها صناعة. وقد عبّر السيسي نفسه عن ذلك في مؤتمر للشباب في العام 2019، ما يعني وضع كرة القدم نصب عيني السلطة، كهدف استثماري جديد، متغاضيةً عن أنها متعة الفقراء الوحيدة والدائمة.

5- يستند الاستثمار في مجال كرة القدم إلى قانون الرياضة الصادر في العام 2017، ويجيز فقط بيع الأندية الخاصة التي تتخذ شكل شركات مساهمة، أما الحكومية مثل الأهلي والزمالك فيحظر القانون تحولها إلى شركات مساهمة. كما ينص القانون على أن تتخذ الشركات التي تنشأ لمزاولة أعمال الخدمات الرياضية شكل الشركات المساهمة، ويجوز قيد أسهمها في بورصة الأوراق المالية.

تضامن جماهير «الرجاء» المغربي مع ضحايا «مذبحة بورسعيد».

«الألتراس» في مصر: سنوات من تنكيل السلطة بهم

إسلام ضيف

كاتب صحافي

«اضرب في غاز.. اضرب رصاص.. جيلنا من الموت.. مبقاش بيخاف خلاص» و«في كل مكان في بلادي سامع صوت شهيد.. بحياته بيكتب غنوة للفجر الجديد.. حرية وجوا بلادنا مش هنعيش عبيد»..

مـن مدرَّجـات ملعـب اسـتاد القاهـرة، نفـذت مجموعـة «ألـتراس أهـلاوي» لوحـة فنيـة تحـت عنـوان «الكـرة للجماهـير». قبيـل انطـلاق المبـاراة النهائيـة لبطولـة كأس الاتحـاد الأفريقـي في عـام 2014، وجهـت الجماهـير رسـالتها هـذه إلى السـلطات بلغـات متعـددة، ورفعـت لافتـة ضخمـة مكتـوب عليهـا «بـكل لغـات العـالم.. يمكـن تفهمـوا.. الكـرة للجماهـير».

بـرزت مجموعـات الألـتراس في مـصر منـذ عـام 2007 كظاهـرة لديهـا القـدرة عـلى التنظيـم الجماعـي، وقـد أثـار ظهورهـا انتبـاه الدولـة والمجتمـع، كونهـا روابـط جماعيـة منظمـة تتبنـى تقاليـد خاصـة في تشـجيع كـرة القـدم. قبـل هـذا العـام، كان التشـجيع التقليـدي هـو المسـيطر عـلى المشـهد في المدرجـات حتـى جـاءت هـذه الحـركات المتسـمة بالتمـرد لتقـدم ثقافـة جديـدة وترسِّـخ قاعـدة أن الانتـماء لا يكـون إلا للكيـان فقـط.

أمـا عـن الروايـات بشـأن أصـول نشـأة جماعـات الألـتراس في بلداننـا، فقـد تأسسـت في ليبيـا[1] عـام 1989 مجموعـة «ألـتراس دراغـون» لمـؤازرة «نـادي الاتحـاد الليبـي»، ولكنهـا لم تصمـد في مواجهـة قمـع السـلطات لأكـثر مـن أسـبوعين إلى أن تـمّ حلّهـا وزُجَّ بأعضائهـا في السـجون. وكان أقـرب حضـور بعـد القضـاء عـلى هـذه التجربـة هـو في تونـس عـام 1995 حينـما تشـكلت رابطـة تشـجيع النـادي الإفريقـي المعروفـة باسـم «أفريـكان ويـنرز» ثـم لحقتهـا مجموعـات أخـرى خرجـت مـن الأحيـاء الفقـيرة... ومـذاك امتـدت الفكـرة إلى بقيـة بلـدان المنطقـة.

ظهور لأول مرة في ملاعب القاهرة

كان مـن الطبيعـي أن تصـل هـذه الظاهـرة إلى مـصر نظـراً لمـا تمثّلـه كـرة القـدم مـن أهميـة بالغـة عنـد الجماهـير العاشـقة للعبـة الشـعبية الأولى. جـاءت فكـرة تأسـيس الروابـط عـلى طريقـة الألـتراس العالمـي لتبـدأ بمجموعتـين وهـما «ألـتراس أهـلاوي» و«ألـتراس وايـت نايتـس»، لمسـاندة أقـدم وأكـثر الأنديـة شـعبية عـلى السـاحة الرياضيـة وهـما الأهـلي والزمالـك أو مـا يطلـق عليهـما «قطبـا الكـرة المصريـة» اللـذان يقـوم بـين جمهوريهـما «صراع» قديـم. يتفـوق الأهـلي بـلا شـك عـلى الزمالـك في حصـد الألقـاب، بالإضافـة إلى امتلاكـه قاعـدة جماهيريـة أكـبر. وعندمـا يتعلـق الأمـر بمبـاراة تجمـع بـين الفريقـين، فـلا مجـال هنـا للحيـاد! إنـه «ديـربي القاهـرة» الـذي يضـع أهـل البيـت الواحـد في مواجهـة بـين بعضهـم البعـض حيـث ينقسـم الـولاء بـين «الأحمـر» و«الأبيـض».

ضمـت المجموعتـان أعـداداً قليلـة في البدايـة، لكنهـا سريعـاً مـا اتسـعت واتخـذت مـن مدرجـات الدرجـة الثالثـة مقـراً لهـا. تأسسـت أول مجموعـة ألـتراس مصريـة بشـكل رسـمي في شـهر آذار/ مـارس مـن العـام 2007، وهـي مجموعـة «وايـت نايتـس» لمسـاندة نـادي الزمالـك ويرمـز لهـا بــ(UWK07) ومكانهـا المـدرج الأيمـن. ثـم لحقتهـا بعـد شـهر واحـد رابطـة ألـتراس أهـلاوي (UA07)، ومكانهـا الجانـب الأيـسر مـن المـدرج.

سرعـان مـا تأسسـت بعـد ذلـك روابـط مماثلـة لتشـجيع أنديـة شـعبية أخـرى خـارج العاصمـة، كمجموعـة «غريـن ماجيـك» التـي تشـجع «نـادي الإتحـاد السـكندري»، و«غريـن إيجلـز» المشـجعة لــ «نـادي المـصري البورسـعيدي»، و «اليلـو دراغونـز» لـ«لنـادي الإسـماعيلي»، نسـبة إلى المـدن التـي يـأتي منهـا كل فريـق.

وسـبق اجتيـاح هـذا النـوع مدرجـات الملاعـب الرياضيـة، وجـود مجموعـات معـترف بهـا مـن قبـل الأنديـة حاولـت

1- محمد جمال بشير، «كتاب الألتراس»، دار «دوّن» للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011.

تغيير شكل التشجيع، كـ«رابطة مشجعي النادي الأهلي» (AFC) وقبلها «رابطة محبي النادي الأهلي» (ALU) صاحبة فكرة أكبر لافتة حملت شعار النادي، رفعتها الجماهير في المدرجات المصرية لأول مرة عام 2001 خلال مباراة جمعت فريق الأهلي بفريق نادي ريال مدريد الإسباني في القاهرة. وكانت هنالك أيضاً «رابطة اتحاد محبي نادي الزمالك» (ZLU)، ورابطة محبي ومشجعي «نادي غزل المحلة».

قبل إندلاع انتفاضة «يناير 2011»، كان التضامن مع قضايا الشعوب حاضراً في مدرجات الألتراس. فقد دأبت الجماهير على رفع الراية الفلسطينية ومناصرة القضية بالشعارات والهتافات. وفي 22 كانون الثاني/يناير 2011، هتفت الجماهير الأهلاوية لتونس في ملعب «استاد المقاولون العرب» احتفالاً بالثورة التونسية، ورفعت العلم التونسي.

تتكون جماهير حركات الألتراس من الذكور فقط، بحكم التنميط المجتمعي. وعلى الرغم من أن معظم الأفراد المنتمين إلى هذه المجموعات ينحدرون من مناطق شعبية فقيرة، إلا أنه من الصعب القول بأنها تمتلك طابعاً طبقياً بعينه، فهي تحتوي على أعضاء من خلفيات اجتماعية متنوعة.

من المدرج إلى ميدان التحرير

«الكورة لما جينا كانت كذب وكانت خداع».. هكذا تعبر أغنية «حكايتنا» من إصدار مجموعة «ألتراس أهلاوي» عقب مذبحة بورسعيد الدامية التي توقف بعدها النشاط الرياضي لفترة. والأهزوجة تروي الصراع بين الألتراس والسلطة، وتؤكد على رفض استغلال السلطة لكرة القدم بهدف تزييف الوعي العام. كان هذا الإنتاج معبِّراً أيضاً عن حالة القمع التي مارستها السلطة ضد جمهور المدرجات وصولاً إلى تدبير أبشع كارثة في تاريخ الرياضة المصرية للانتقام من المشجعين، وكان مسرحها ملعب «استاد بورسعيد» حيث أقيمت مباراة في بطولة الدوري المحلي بين فريقي «الأهلي» و«المصري البورسعيدي» في الأول من شباط/فبراير 2012. وعقب انتهاء المباراة، اقتحمت الجماهير المتواجدة في مدرجات «النادي المصري» أرض الملعب، واندفعت نحو مدرجات جمهور الأهلي في الجهة المقابلة، مما أدى إلى وقوع اشتباكات بالأسلحة البيضاء، راح ضحيتها 72 من مشجعي النادي الأهلي وفقاً للأرقام الرسمية، دون أي تدخل يُذكر من قوات الأمن الحاضرة لتأمين المباراة، والتي قامت بغلق أبواب الخروج أمام جمهور الأهلي، وهو ما تسبب بالتدافع الشديد وسقوط المزيد من الضحايا.

تتكون جماهير حركات الألتراس من الذكور فقط، بحكم التنميط المجتمعي. وعلى الرغم من أن معظم الأفراد المنتمين إلى هذه المجموعات ينحدرون من مناطق شعبية فقيرة، إلا أنه من الصعب القول بأنها تمتلك طابعاً طبقياً بعينه، فهي تحتوي على أعضاء من خلفيات اجتماعية متنوعة.

المنتج الفني للألتراس، والذي تضاعف عقب وقوع المذبحة، لم يكتسح المدرجات فقط، بل تجاوز حدود الملاعب، وقد تم استخدامه للتعبير عن الغضب المناهض للسلطة في ميادين الثورة المصرية. وهم هنا كما في المدرج يرددون الهتافات الحماسية على وقع آلة «الطرومبيطة»[2].

2- آلة تستخدمها مجموعات الألتراس خلال التشجيع، وهي عبارة عن طبلة كبيرة، وتردَّد الأغاني على دقات «الطرومبيطة».

وقد امتد تأثير هذا المنتج إلى ساحات أخرى، كما انتشرت الأغاني على نطاق واسع ووصل صداها إلى العالم.

«اقتل في الثورة كمان

كلمة حر ليك جنان

مهما يزيد بطش السجّان

قدام صوتي يكون جبان..»

وهـذه مـن أبـرز مقاطـع أغنيـة «حكايتنـا»، وقـد عـبرت كلماتهـا الحـدود لتصـدح في سـماء العاصمـة اللبنانيـة بـيروت. ردد المحتجـون كلـمات الأغنيـة في سـاحات انتفاضـة تشرين/أكتوبـر 2019، مـما يعكـس قـدرة الخطـاب الإحتجاجـي عـلى التأثـير بقـوة، إذ يصـوِّر رداءة الواقـع الاجتماعـي والسـياسي، ومـا ارتكبتـه قـوى الثـورة المضـادة أثنـاء محاولـة خنـق صـوت النـاس الذيـن وجـدوا في ملاعـب كـرة القـدم فرصـة للتعبـير عـن الاحتجـاج بأشـكال إبداعيـة.

بعد الاشتباكات بين قوات الأمن والألتراس في استاد القاهرة في العام *2011*.

وفي خضـم الـصراع معهـا، فرضـت السـلطات حظـراً عـلى هـذه الروابـط ومنعتهـا مـن الحضـور في المدرجـات، وصـدر في عـام 2017 قانـون الرياضـة الجديـد رقـم 71 متضمنـاً حظـر تأسـيس روابـط تشـجيع رياضيـة. وقـد سـبق ذلـك إصـدار أحـكام قضائيـة تعتـبر تلـك المجموعـات كجماعـات إرهابيـة محظـورة. وفي أيار/مايـو عـام 2015، أعلنـت محكمـة الأمـور المسـتعجلة روابـط التشـجيع تنظيـمات إرهابيـة وقضـت بحظـر نشـاطها. انتهـى الأمـر إلى ذلـك بعـد سلسـلة مـن الممارسـات القمعيـة واعتقـال الأفـراد المنتمـين إلى هـذه الروابـط التـي أعلنـت بعضهـا مؤخـراً عـن حـل نفسـها وإيقـاف نشـاطها.

بالعودة إلى بدايات ظهور مجموعات الألتراس في الملاعب، فقد أرادت أجهزة الأمن المصرية السيطرة عليهم منذ اللحظة الأولى، وتعامل معهم جهاز الشرطة بعدوانية صاحَبها هجوم عنيف من الإعلام الذي كان شريكاً رئيسياً للسلطة في التحريض.

ورداً على ذلك، تحولت مدرجات الملاعب إلى أماكن للاحتجاج ولتحدي السلطة المصرية بالأغنيات والشعارات، وكان أبرزها الشعار الشهير المناهض لممارسات وزارة الداخلية، وهو «A.C.A.B» (اختصار بالانجليزية وبالأحرف الأولى لـ«كل رجال الشرطة أوغاد»). وكان من ضمن الممارسات الشرطية التفتيش المهين ومصادرة أدوات التشجيع قبل بداية المباريات، كما تعرض أفراد الروابط إلى الاعتقالات التعسفية.

ثلاث سنوات فصلت بين مجزرتي «بورسعيد» و«الدفاع الجوي»، الأكثر دموية في تاريخ الملاعب المصرية. الأولى خلفت 72 شهيداً من رابطة «ألتراس أهلاوي»، والثانية 20 شهيداً من رابطة «ألتراس وايت نايتس». بطريقة وحشية أرادت السلطات التخلص من حركة الألتراس.

وكان ذلك مع أول ظهور لرابطة ألتراس أهلاوي في المدرجات، حيث واجهت اعتراض قوات الأمن على تعليق «البانر» الخاص بها خلال مباراة (13 نيسان/أبريل 2007) بين فريقي «الأهلي» و«إنبي»[3] . لكن الألتراس استطاعوا في النهاية تعليق «البانر» بعد مناوشات مع الأمن. أما بداية الاشتباكات العنيفة مع الشرطة فوقعت في عام 2010، عندما حاولت الشرطة منع دخول أدوات التشجيع في مباراة ودية بين «الأهلي» و«كفر الشيخ»، وألقي القبض حينها على سبعة من مشجعي النادي الأهلي.

صدر في عام 2017 «قانون الرياضة الجديد» رقم 71 متضمناً حظر تأسيس روابط تشجيع رياضية. وقد سبق ذلك إصدار أحكام قضائية تعتبر تلك المجموعات إرهابية محظورة. انتهي الأمر الى سلسلة من الممارسات القمعية واعتقال الأفراد المنتمين إلى هذه الروابط التي أعلنت بعضها مؤخراً عن حل نفسها وإيقاف نشاطها.

«لفق لفق في القضية.. هي دي عادة الداخلية».. من أهازيج ألتراس أهلاوي المعبرة عن ممارسات وزارة الداخلية في تلفيق القضايا. وتوازيها كلمات رابطة «وايت نايتس» في التعبير عن هذه الملاحقات الأمنية «ضربتونا وحبستونا ولفقتولنا قضايا كتير».

قبل اندلاع انتفاضة «يناير 2011»، كان التضامن مع قضايا الشعوب حاضراً في مدرجات الألتراس. فقد دأبت الجماهير على رفع الراية الفلسطينية ومناصرة القضية بالشعارات والهتافات. وفي 22 كانون الثاني/يناير 2011، هتفت الجماهير الأهلاوية لتونس في ملعب «استاد المقاولون العرب» احتفالاً بالثورة التونسية، ورفعت العلم التونسي. المشهد نفسه تكرر في الصالة المغطاة لكرة السلة بنادي «الاتحاد السكندري»، حيث تحدى جمهور نادي الإتحاد قوات الأمن بهتافات مدوّية تقول «تونس.. تونس.. تونس»، خلال مباراة بين الاتحاد السكندري ونادي الجزيرة.

انتقلت المواجهات من الملاعب إلى الميادين، وكانت ثورة يناير 2011 نقطة تحول حقيقية ولعبت مجموعات

3- نادي رياضي مصري أنشئ عام 1985 وتملكه «الشركة الهندسية للصناعات البترولية والبتروكيماوية» (إنبي).

الجماهير ترفع الراية الفلسطينية وتناصر القضية.

الألـتراس دوراً رئيسـياً في التظاهـرات التـي أطاحـت بالرئيـس الأسـبق حسـني مبـارك، مسـتخدمين خبرتهـم وأسـاليبهم في التعامـل مـع قـوات الشرطـة خـلال الاشـتباكات للدفـاع عـن ميـدان التحريـر، خاصـة في «موقعـة الجمـل» الشـهيرة، ولذلـك أطلـق عليهـم «حـماة الثـورة». وسـقط مـن بينهـم شـهداء في يـوم جمعـة الغضـب، فـكان منهـم «أحمـد كـمال» عضـو رابطـة «ألـتراس أهـلاوي»، و«حسـين طـه» عضـو رابطـة «وايـت نايتـس». بعـد تـولي المجلـس العسـكري السـلطة، كان شـباب الألـتراس مـن بـين المحتجـين الذيـن عـادوا إلى الميادين للاعـتراض عـلى الحكـم العسـكري، وشـاركوا بقـوة في المواجهـات الداميـة مـع وزارة الداخليـة والشرطـة العسـكرية، لتسـتمر مسـيرة التضحيـات وتقديـم الشـهداء في هـذه المعـارك، ومنهـم «شـهاب الديـن أحمـد» عضـو رابطـة «وايـت نايتـس» الـذي غُـدِر بـه في أحـداث «شـارع محمـد محمـود»، و«محمـد مصطفـى» الشـهير بـ«كاريـكا» عضـو رابطـة «ألـتراس أهـلاوي»، والـذي سـقط في أحـداث مجلـس الـوزراء برصـاص الشرطـة العسـكرية.

«اضرب في غـاز.. اضرب رصـاص.. جيلنـا مـن المـوت.. مبقـاش بيخـاف خـلاص» و«في كل مـكان في بـلادي سـامع صـوت شـهيد.. بحياتـه بيكتـب غنـوة للفجـر الجديـد.. حريـة وجـوا بلادنـا مـش هنعيـش عبيـد».. هـذه الكلـمات رددهـا شـباب الألـتراس وهـم يواجهـون رصـاص الأمـن بشـجاعة.

حجـم التأثـير الـذي تركتـه مجموعـات الألـتراس في نفـوس المحتجـين غـير المنتمـين لهـم في ميادين الثـورة، دفعهـم إلى اتخـاذ الشـكل نفسـه وكذلـك الطـرق الاحتجاجيـة لهـذه الروابـط مـن أغنيـات وشـعارات أخـذت تـتردد في التظاهـرات. بـل تشـكلت مجموعـات مـن «حـركات الألـتراس السياسـية» تحـاكي تلـك الروابـط الرياضيـة، كمجموعـة «ألـتراس ثورجـي» التـي تشـكلت عقـب ثـورة يناير 2011 خـلال فـترة حكـم المجلـس العسـكري بواسـطة مجموعـة مـن الشـباب في ميـدان التحريـر. ومـع حلـول أول انتخابـات رئاسـية بعـد الثـورة، لجـأت الحمـلات الانتخابيـة إلى إدخـال هـذه الثقافـة لدعـم المرشـحين الرئاسـيين بإنشـاء مجموعـات ألـتراس تحمـل اسـم المرشـح. إلى أن ظهـرت عـلى السـاحة حـركات ألـتراس

سياسية جديدة ولكن بثوب إسلامي في هذه المرة وتنتمي إلى الإسلام السياسي في الفترة التي أعقبت رحيل الإخوان عن السلطة في عام 2013 حيث سارعت جماعة الإخوان إلى تكوينها بهدف تعبئة تظاهرات «ميدان رابعة العدوية»، ومنها «ألتراس ربعاوي». كما برزت في هذه الفترة فعاليات لحركة «أحرار» صاحبة التوجهات الإسلامية، والتي ينتمي معظم أعضائها وقيادتها إلى رابطة «وايت نايتس».

تعمد السلطات للتخلص من الألتراس بطريقة عنفيّة.

«إعلامهم يومها قال عودة الجمهور.. جمعوا الرجال مجاناً الدخول.. وأخيراً راجعين، أتاريه كان كمين» (من أغنية «صرخة العشرين» لرابطة «وايت نايتس» عقب مجزرة الدفاع الجوي): في العام 2015، وضعت السلطات أقفاصاً من الأسلاك الحديدية عند مداخل ملعب استاد الدفاع الجوي، وجهزت لجمهور الزمالك ممرات الموت التي شهدت إطلاق الداخلية الغازات المسيلة للدموع والأعيرة النارية، مما تسبب في تعرض المشجعين إلى الاختناق والموت. بعض من أعضاء رابطة «وايت نايتس» الذين ألقي القبض عليهم عقب الأحداث مباشرة، وجهت لهم تهم تتعلق بالتورط في المذبحة، وقتل زملائهم، بدلاً من محاسبة الجاني الحقيقي.

عبرت أبرز مقاطع أغنية «حكايتنا» الحدود لتصدح في سماء العاصمة اللبنانية بيروت. ردّدها المحتجون في ساحات انتفاضة تشرين/اكتوبر 2019، مما يعكس قدرة الخطاب الاحتجاجي على التأثير بقوة، إذ يصوِّر رداءة الواقع الإجتماعي والسياسي، وما ارتكبته قوى الثورة المضادة أثناء محاولة خنق صوت الناس الذين وجدوا في ملاعب كرة القدم فرصة للتعبير عن الاحتجاج بأشكال إبداعية.

ثلاث سنوات فصلت بين مجزرتي «بورسعيد» و«الدفاع الجوي»، الأكثر دموية في تاريخ الملاعب المصرية. الأولى خلفت 72 شهيداً من رابطة «ألتراس أهلاوي»، والثانية 20 شهيداً من رابطة «ألتراس وايت نايتس». بطريقة وحشية أرادت السلطات التخلص من حركة الألتراس التي لطالما كانت بمثابة كابوس يؤرق الدولة المصرية، ولا يتوانى عن مواجهتها والهتاف ضدها، حتى ولو كان ذلك الهتاف ضد رأس السلطة العسكرية في المدرجات: «الشعب يريد إعدام المشير»، ويُذكِّرها دوماً بالماضي الأليم «مش ناسيين التحرير».

مُشْجِع.. «مش نَزِيل»

«اسمي مشجع مش نزيل.. للحرية مفيش بديل»، هي أغنية لرابطة «وايت نايتس»، أطلقت من خلالها صرخة للإفراج عن الجمهور، وجاء فيها: «الحرية للمدرج.. الحرية للجماهير». وأُهديَت إلى كل مشجع سجين داخل مصر أو خارجها، كما أهدتها الرابطة إلى أرواح الشهداء، ونشرت هذه الكلمات في بيان رافق الأغنية على موقع فيسبوك: «إلى شهدائنا، الذين يُحاكِمون أخواننا بتهمة قتلهم..».

من بين الذين صدرت بحقهم أحكام قضائية في هذه القضية، هو «سيد مشاغب» القائد بالرابطة وأحد المشاركين في تأسيسها، وقد صدر ضده حكم بالسجن المشدد لمدة 7 سنوات. ومنذ اعتقال «مشاغب» إلى الآن، وهو يعيش ظروفاً قاسية داخل محبسه دفعته أكثر من مرة إلى الإضراب عن الطعام.

تشكّل «ألتراس ثورجي» خلال فترة حكم المجلس العسكري بواسطة مجموعة من الشباب في ميدان التحرير. ومع حلول أول انتخابات رئاسية بعد الثورة، لجأت الحملات الانتخابية إلى إنشاء مجموعات ألتراس تحمل اسم المرشح، إلى أن ظهرت على الساحة حركات ألتراس سياسية جديدة ولكن تنتمي إلى الإسلام السياسي، ومنها «ألتراس ربعاوي» بمناسبة الاعتصام في «ميدان رابعة».

وتستمر الملاحقة وإلقاء القبض داخل المدرجات، في إصرار من النظام على قمع المشجعين حتى بعد إحكام قبضته بشكل غير مسبوق على الملاعب المصرية. وكانت قوات الأمن قد ألقت القبض على عدد من جمهور «النادي الأهلي» داخل المدرج خلال مباراة جمعت بين فريقي «الأهلي» و«الرجاء» المغربي في «استاد القاهرة» في 22 نيسان/ أبريل 2023، بسبب الهتافات ضد «المرشدين»، في إشارة إلى المشجعين الذين يعاونون قوات الأمن. وبعد أن صدر قرار عن النيابة العامة بإخلاء سبيلهم، أقدمت نيابة أمن الدولة العليا على سجنهم على ذمة القضية رقم 708 حصر أمن دولة عليا، ووجهت لهم تهمة الانضمام إلى جماعة إرهابية.

≠سيبوها_خاوية، هي حملة انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي من قبل الجماهير المنادية بمقاطعة المدرجات، رداً على القمع الأمني في الملاعب. وقد تضامنت رابطة «ألتراس وايت نايتس» مع السجناء من جمهور الأهلي في بيان لها عبر صفحتها[4]، وطالبت فيه أيضاً بعدم حضور المباريات. وجاء في نص البيان: «نعلن تضامننا الكامل مع جماهير الأهلي وجميع الجماهير المصرية التي تتعرض لمثل هذه التصرفات، ونطالب جميع الجماهير الحرة وأصحاب الكرامة بمقاطعة حضور المباريات في ظل تلك الأجواء التي لا تضمن للمشجع أبسط حقوقه من كرامة وحرية داخل بلاده ومدرجات ناديه بينما يتم توفيرها لجميع الضيوف».

تأبين على الجدران

«الغرافيتي» أحد أشكال الفنون التي أتقنتها مجموعات الألتراس للتعبير عن الاحتجاج ولتأبين شهدائها. انتشرت الجداريات خاصة في «شارع محمد محمود»، تحمل صور الشهداء الذين سقطوا من الألتراس في أحداث الثورة وفي مذابح الغدر التي دبرتها السلطات.

4- بيان لرابطة «وايت نايتس» عبر صفحتها على تويتر، 2023/04/24. (انظر الرابط في المقال على موقع «السفير العربي»).

غرافيتي للشهداء في شارع محمد محمود.

ثم انطلقت هذه الجداريات إلى بقية الميادين العامة والمحافظات. وبعدما قامت السلطات بإزالتها أكثر من مرة، أعاد الشباب رسمها، ودونوا عبارات تتحدى السلطة مثل «امسح كمان.. يا نظام جبان». كما أصدرت رابطة «ألتراس ديفلز» أغنية بعنوان «غرافيتي» رداً على إزالة الرسومات، من كلماتها «امسح جرافيتي.. شوه صورة.. كلاب الداخلية دايما مسعورة.. عشان رسوماتي دايماً فضحاكم.. عشان طايلاكم وطايلة اللي معاكم». وفي أغنية أخرى للرابطة بعنوان «المجد للشهداء»، ذكرت فيها «خالد عمر» رسام الغرافيتي، شهيد مجزة بورسعيد بكلمات: «الإسم كان خالد الرسام.. غرافيتي أبلغ من الكلام».

الجزائر

غرافيتي من إنجاز مشجعي «نادي الشباب الرياضي ببلوزداد»، الجزائر.

من الكفاح ضد الاستعمار إلى التعبئة من أجل الحريات: كرة قدم الشعب في الجزائر

عمر بن درة

خبير إقتصادي من الجزائر، عضو في Watch Algeria

ترجمه من الفرنسية: محمد رامي عبد المولى

أصبح الملعب مركزاً للتعبئة الشعبية، ومنتجاً لدلالات سياسية عمليّة تناقلها الرأي العام بشكل واسع على اختلاف شرائحه الاجتماعية. والتحمس لهذه الرياضة ليس أمراً مستجداً. فقد لعبت كرة القدم دوراً مهماً في تاريخ الجزائر المقاوِمة للاستعمار فكانت فرقها تحتضن تعبيراً سياسياً هوياتياً مناهضاً له. وتظل كرة القدم في فترة الثورة ضد الاستعمار أو في زمن المطالبة بالحريات والكرامة، إحدى نواقل المطالب السياسية للشعب الجزائري.

عبر ترديدهم بصوت واحد الشعارات والأهازيج الاحتجاجية لمشجعي فرق كرة القدم في العاصمة الجزائرية، فرض المشاركون في مظاهرات «الحراك» (2019) على الجميع الاعتراف الصريح بملاعب كرة القدم بوصفها فضاءات سياسية تلعب أدواراً رئيسية. تسربت الأغاني الحماسية المفعمة بالغضب من الملاعب وسرت في شرايين كل المدن الجزائرية. وهكذا أصبح الملعب مركزاً للتعبئة الشعبية، ومنتجاً لدالّات سياسية عملية تناقلها الرأي العام بشكل واسع على اختلاف شرائحه الاجتماعية. ومن دلائل أهمية كرة القدم في المشهد الاجتماعي-الجزائري غزارة ما خُصّص لها من دراسات وتحليلات تاريخية أو سوسيولوجية، ومقالات متنوعة جداً لصحفيين وكتاب مختصين في الشأن السياسي لم يُعرف عنهم في العادة اهتمامهم بتغطية الأحداث الرياضية. يكفي القيام ببحث سريع على الإنترنت حتى نتأكد من ذلك[1].

في الجزائر، كما هي الحال في كثير من البلدان التي تندر فيها وسائل الترفيه أو لا تكون في متناول الطبقات الشعبية، تمثّل كرة القدم ملكة الرياضات بلا أدنى شك، طبعاً باعتبارها عرضاً فرجوياً أكثر بكثير من كونها ممارسة جماهيرية رائجة. في الواقع، على الرغم من إنشاء عدة ملاعب كبيرة في مختلف أرجاء البلاد منذ السبعينيات، فإن المنشآت والبنى التحتية المخصصة للشباب للقيام بالتدريبات ولعب المقابلات على مستوى الأحياء السكنية نادرة وأبعد ما تكون عن تلبية تطلعات شبيبة متخلى عنهم. الاستثمار في المنشآت الرياضية القريبة من السكان محدود جداً وضئيل مقارنة بالاحتياجات. كرة القدم التي يلعبها شباب الأحياء الشعبية تُمارَس أساساً في الشوارع أو قطع الأرض المتروكة.

ومع ذلك، فإن غياب سياسة عمومية لتطوير الأنشطة الرياضية ليس له أي تأثير على ولع الجمهور الجزائري بكرة القدم. وهذا ما يمكن التثبت منه كل يوم جمعة عندما تغص مدارج كل ملاعب البلاد - بلا استثناء - بالجماهير، وخاصة خلال مقابلات المنتخب الوطني التي تطبعها شحنة عاطفية تكتسح الفضاء العام في جو متقد حماساً.

جذور كرة القدم في الجزائر والتحرر المناهض للاستعمار

التحمس لهذه الرياضة، وما تنقله وتبثه من معان سياسية وشحنة انفعالية ليست أموراً مستجدة. لعبت كرة القدم دوراً مهماً في تاريخ الجزائر المقاومة للاستعمار. ولدت أولى الفرق الرياضية الجزائرية الخالصة في أوج الهيمنة الاستعمارية، وذلك قبيل سنوات من الاحتفال المتغطرس، سنة 1930، بمرور قرن على احتلال الجزائر.

وعلى الرغم من التشكيك في ريادته من قبل فرق رياضية أخرى مثل «نادي مولودية وهران» و«النادي الرياضي القسنطيني»، التي تعتبر أن تاريخ تأسيسها الحقيقي أقدم من التاريخ الرسمي المعتمد، فإن «نادي مولودية الجزائر» ذا الشعبية الهائلة والذي تأسس رسمياً في 1921 يُعتبر عميد كرة القدم الجزائرية.

تحيل تسميات هذه الفرق، التي تنامى عددها بسرعة في كامل أرجاء الجزائر، إلى مدنها الأصلية وفي الكثير من الأحيان إلى الديانة الإسلامية، للتمايز عن الفرق «الأوروبية» المشكَّلة أساساً من «الأقدام السوداء»[2].

1-Djamel Boulebier, *Le foot, l'urbain et la démocratie*, Insaniyat [édition électronique] (N°8), Mai-Août/1999.

2- تسمية أطلقت على المستوطنين الفرنسيين والأوروبيين الذين سكنوا في الجزائر أو ولدوا فيها إبان الاحتلال الفرنسي للبلاد، وتختلف الروايات في أصلها - ملاحظة من المترجم.

وحتى قبل تأسيس حركة «الكشافة الإسلامية الجزائرية» (1935) التي تعد أول مدرسة جماهيرية لتشكيل الوعي الوطني لدى الشباب، كانت فرق كرة القدم الأطر الأولى التي احتضنت تعبيراً سياسياً هوياتياً مناهضاً للاستعمار بشكل شبه معلن. وبطبيعة الحال، فهمت السلطات الإستعمارية الخطر الذي يمكن أن تشكله هذه التجمعات، فسعت بشتى الوسائل إلى منع فرق كرة القدم من التحول إلى أراض خصبة للفكر الوطني الوحدوي. ولهذه الغاية فرضت عدة إكراهات على هذه النوادي مثل ضمّ عدد معين من اللاعبين غير المسلمين إلى الفرق وتخصيص مقراتها حصرياً للأنشطة المرتبطة مباشرة بممارسة الرياضة[3].

كثيراً ما كانت المواجهات بين المشجعين من «الأهالي» (السكان الأصليون) و«الأقدام السوداء» في المدارج، حيث يسود فصل عنصري صارم، صدى للمواجهات بين اللاعبين في الميدان[4]. مثلاً الانتصار الذي حققه منتخب من لاعبي شمال أفريقيا[5] على منتخب فرنسا خلال مقابلة ودية جمعتهما في أيلول/سبتمبر 1954، أي قبل شهرين من «الفاتح من نوفمبر 1954» تاريخ اندلاع حرب التحرير الوطنية، رأى فيه كثير من الاستقلاليين المتحمسين إشارة من القدر.

رأى الكثير من الاستقلاليين المتحمسين الانتصار الذي حققه منتخب من لاعبي شمال أفريقيا على منتخب فرنسا خلال مقابلة ودية جمعتهما في أيلول/سبتمبر 1954 - أي قبل شهرين من «الفاتح من نوفمبر 1954»، تاريخ اندلاع حرب التحرير الوطنية - إشارة من القدر.

وقد تخللت المباريات التي لعبت في الأشهر الأولى من حرب التحرير اشتباكات أكثر فأكثر عنفاً بين المشجعين «الأهالي» و«الأقدام السوداء»، وكثيراً ما تحولت إلى أعمال شغب. وتلبية لنداء جبهة التحرير الوطني، انسحبت الفرق الجزائرية نهائياً من كل المنافسات الرسمية.

لكن أكبر انتصار حققته جبهة التحرير الوطني في الميدان السياسي هو بلا شك «انشقاق» لاعبين جزائريين مشهورين -في نيسان/أبريل 1958- كانوا ينشطون في صفوف أكبر النوادي الفرنسية[6]. هؤلاء اللاعبون سيعززون صفوف فريق كرة القدم التابع لجيش التحرير الوطني الذي تأسس قبل تلك الحادثة بأشهر قليلة (1957) في أوج حرب التحرير، وأصبح المنتخب الوطني للجزائر المحارِبة. وإلى حد استقلال الجزائر سنة 1962، خاض هذا الفريق قرابة 90 مقابلة في مختلف أرجاء العالم وشكل رافعة شديدة النجاعة للبروباغندا الموجهة للعالم. أسر هذا الفريق، باعتباره رمزاً جامعاً في مسار استرداد الكرامة المستباحة، قلب الجمهور الرياضي الجزائري وخلق لديه تعلقاً عميقاً بالمنتخب الوطني لا يزال مستمراً إلى اليوم.

3-Philip Dine, Didier Rey, *Le football en guerre d'Algérie,* Matériaux pour l'histoire de notre temps - [édition électronique] (N°106), Février/2012.

4- سرعان ما أصبح الملعب «نموذجاً مصغراً عن المواجهات الاثنية» كما يشهد على ذلك تقرير صادر عن محافظ قسنطينة يذكر فيه أعمال عنف تسبب فيها مشجعو الفريق المسلم «الشبيبة الرياضية الجيجيلية» في سنة 1937:

Vincent Jacquet, *D'instrument de propagande à miroir de la guerre d'Algérie : l'équipe de football du Front de Libération Nationale, 1954-1962,* Bulletin de l'Institut Pierre Renouvin - [édition électronique]- (N°47), Janvier/2018.

5- إلى جانب الأسطورة بن مبارك، ضم فريق شمال أفريقيا الجزائريين مصطفى زيتوني وعبد العزيز بن طيفور ومختار عريبي وعبد الرحمن بوبكر وعبد الرحمن مفتاح ورشيد بلعيد وسعيد حداد، والمغاربة عبد الرحمن محجوب ومحمد عبد الرزاق وسالم بنميلود بالإضافة إلى التونسي قاسم حسونة.

6-Séverine Floch, *L'équipe du FLN au cœur de la lutte pour l'indépendance de l'Algérie*, Footpol.fr, 28/04/2020.

DEMAIN DANS L'ÉQUIPE
MON ARONDE ET MOI
... une réalisation de la DOCUMENTATION SPORTIVE ET INDUSTRIELLE

L'ÉQUIPE
LE QUOTIDIEN DU SPORT
et de l'Automobile

30

LA POULE AU POT

NEUF FOOTBALLEURS ALGÉRIENS (DONT ZITOUNI) ONT DISPARU

Emotion à Monaco (outre Zitouni, Boubekeur, Ben Tifour et Bekkloufi), à Angers (Rouiai), à Toulouse (Brahimi et Bouchouk), à Lyon (Kermali) et à Saint-Etienne (Mekloufi)

JONQUET ARRIÈRE CENTRAL CONTRE LA SUISSE

LA JOURNÉE EN QUELQUES PHRASES

BONIFACI N'IRA PAS EN SUÈDE

الصفحة الأولى لجريدة «ليكيب» الفرنسية، بتاريخ *15* نيسان/أبريل *1958*.

الملعب: متنفس ومنتدى الاحتجاج

ظلت الفترة المؤسِسة لهذا الفريق ولكرة القدم المقاوِمة حية في الذاكرة الجماعية، لكن ما آلت اليه الأوضاع بعد الإستقلال لا يشبه كثيراً هذا الإرث المجيد. فبصفة عامة كان النظام التسلطي المنبثق عن الصراع حول السلطة في صيف 1962 يعتبر الرياضة أمراً ثانوياً [7]. بطبيعة الحال، اهتم الحكام المتعاقبون بالفوائد السياسية المحتملة لكرة القدم فيما يتعلق بالشعبية والقاعدة الاجتماعية لكنهم لم يستثمروا في تطويرها. تعميم التعليم مثّل الجزء الأعظم من استراتيجية السياسات المتتالية الموجهة للشباب. وهكذا تشكلت كرة القدم الجزائرية من غير أن يكون لها مشروع رياضي حقيقي، وظلت إصلاحات سنة 1977 المحاولة الحقيقية الوحيدة لتنظيم هذه الرياضة وإرساء قواعد بنية تحتية تلبّي تطلعات واحتياجات شعب فتي يشهد نسبة نمو ديمغرافي قوية.

هدفت هذه الإصلاحات ذات النَفَس «الاشتراكي» إلى إلحاق الجمعيات الرياضية الكبرى بمؤسسات عمومية وذلك - حسب التفسيرات الرسمية - لغاية منحها الإمكانيات الضرورية لتطوير أنشطتها. هذه المبررات صادقة بكل تأكيد، لكن نوايا أصحاب القرار في ذلك الوقت انطلقت قبل كل شيء من السعي لحرمان قوى سياسية - كانت آنذاك غير منظمة بشكل كافٍ - من أرضية للتأثير على الشباب. في الواقع، تزامنت نهاية فترة حكم هواري بومدين، الذي توفي في كانون الأول/ديسمبر 1978، مع ظهور توترات هوياتية في منطقة القبائل (ملاحظة المترجم: منطقة يهيمن عليها العنصر الأمازيغي) إثر الشروع في سياسة تعريب لم تراع الخصوصيات التاريخية والخصائص الاجتماعية-الثقافية للبلاد. في هذا السياق، عبّر مشجعو نادي «الشبيبة الرياضية للقبائل» - خلال نهائي كأس الجزائر في حزيران/يونيو 1976 - عن استهجانهم الصاخب لحضور الرئيس بومدين الذي كان جالساً في المنصة.

7- من مداخلة لمحند عامر عمّار في الندوة التي نظمتها «مدرسة الأساتذة العليا» بمدينة ليون في حزيران/يونيو 2006 حول الأزمة السياسية بعد الاستقلال في صيف 1962.

الرئيس بن بلة يستقبل بومدين قائد جيش التحرير الوطني إثر وصوله إلى العاصمة، الملعب البلدي بالجزائر، *10* أيلول/ سبتمبر *1962*. (الإنترنت)

وانطلاقاً من هذا الحدث غير المسبوق، ستتحول ملاعب كرة القدم، إلى غرف صدى للسخط الشعبي. مثّل العرض الممتاز الذي قدمه المنتخب الوطني خلال مشاركته في كأس العالم 1982، على الرغم من الخداع الذي كان ضحيته[8]، فاصلاً قصيراً من الحماسة الجماعية في مرحلة من التردي السريع للوضع الاجتماعي - الاقتصادي، انطلقت مع تهاوي أسعار المحروقات في سنة 1986. خلال تلك الفترة المتسمة بالاحتقان المتنامي، كان ظهور المسؤولين الرسميين يثير السخرية ويطلق العنان لشتائم المشجعين في مدارج الملاعب. في ثمانينيات القرن الفائت كانت مباريات كرة القدم، خاصة «الدُربيات» (وهي المقابلات بين فريقين من المدينة نفسها) التي تُؤجج خصومات تتجاوز أحياناً المنافسة الرياضية، تنتهي كلها بمظاهرات فوضوية ومواجهات عنيفة جداً أحياناً مع قوات الأمن.

في بداية شهر تشرين الأول/أكتوبر 1988 تجلّت التوترات في قمة السلطة، بين أنصار الانفتاح النيوليبرالي والمنادين بالحفاظ على الوضع القائم، في شكل مظاهرات «عفوية» لآلاف الشباب عبر كامل أرجاء البلاد. على خلفية من البطالة المستشرية والنقص الحاد في السلع وارتفاع الأسعار، عبّرت هذه الاضطرابات بشكل قوي عن الظروف التي تعاني منها الطبقات الشعبية في مجتمع مكمم الأفواه يرزح تحت حكم الحزب الواحد. قُمعت هذه المظاهرات من قبل الجيش والشرطة السياسية اللذين اقترفا مذبحة ذهب ضحيتها مئات القتلى - الأغلبية الساحقة منهم شباب ويافعون - ورافقتها انتهاكات مخيفة لحقوق الإنسان.

ما بين الشرطة السياسية والأوليغارشيا: تلاعب وإلهاء

انطلاقاً من ذلك الحدث وإلى اليوم، ظلت الملاعب معقل التعبير السياسي الشعبي بامتياز، والمتنفس الجماعي

8- *Comment un match arrangé entre pays européens pour éliminer l'Algérie a marqué à jamais l'histoire de la Coupe du monde?*, Middle East Eye (édition française), 30/11/2022.

لشبيبة تُغنّي غضبها ويأسها بالاهانات والشتائم التي تكيلها إلى كل السلطات. افتَتح انقلاب 11 كانون الثاني/يناير 1992، الذي قطع المسار الديمقراطي المستتبِع لأحداث تشرين أول/اكتوبر 1988، مرحلة من العنف الدموي الهائل. خلال «الحرب القذرة» على المدنيين التي استمرت إلى بداية سنوات 2000، مات عشرات آلاف الجزائريين في ظروف مريبة[9]. ظلت هويات مقترفي هذه الجرائم ضد الإنسانية غير معروفة في أغلب الأحيان، والمعروفون منهم يتمتعون بحصانة كاملة. طيلة تلك الفترة المشؤومة، كانت المدارج تدوي بأهازيج استفزازية تمجّد قادة الجماعات الإرهابية التي تنسب نفسها إلى الإسلام دون أن يعي المشجعون أن معظم هؤلاء «الأمراء» كانوا في الحقيقة عملاء سريين زرعتهم الشرطة السياسية أو مقاتلين استطاعت استقطابهم وتجنيدهم، وهذا ما سيكتشفونه لاحقاً[10].

شهد العام 1988 مظاهرات لآلاف الشباب عبر البلاد، بسبب البطالة والنقص الحاد في السلع وارتفاع الأسعار، عبّرت عن الظروف التي تعاني منها الطبقات الشعبية في مجتمع مكمم الأفواه يرزح تحت حكم الحزب الواحد. قُمعت هذه المظاهرات من قبل الجيش والشرطة السياسية اللذين اقترفا مذبحة ذهب ضحيتها مئات القتلى - الأغلبية الساحقة منهم شباب ويافعون - ورافقتها انتهاكات مخيفة لحقوق الانسان.

إزاء استحالة منع المسابقات الرياضية في سياق العنف الهائل الذي ساد في تسعينيات القرن الفائت، سعت السلطات إلى التحكم في الأمور قدر الامكان، وتصريف غضب جموع المشجعين الذين كانوا في حالة غليان. ولهذا الغرض سيطرت الشرطة السياسية بفضل أتباعها المخلصين على دفة القيادة في «الجامعة الجزائرية لكرة القدم» ونوادي كرة القدم، وحاولت فتح قنوات تواصل مع المشجعين. لكنها ستتبين أنّ اختراق مجموعات المشجعين والتلاعب بها مهمة أكثر تعقيداً مما تعتقد. فهذه المجموعات القاعدية غير المهيكلة رسمياً تتكون في الأساس من شباب الأحياء الذين يعرفون بعضهم البعض جيداً. وعلى الرغم من كل التدابير البوليسية، ظل المسؤولون الرسميون المبعوثون إلى الملاعب يتعرضون كل جمعة - يوم خوض المنافسات - إلى الشتائم والإهانات التي يكيلها لهم جمهور متّقد ومشحون.

في بداية سنوات 2010 وانسجاماً مع سياسة الخصخصة التي أطلقتها اتفاقيات إعادة جدولة الديون الموقّعة مع صندوق النقد الدولي في سنتي 1994 و1995، ووسط مناخ الترب والنهب الذي ساد فترة حكم بوتفليقة، قررت السلطات أن تفرض النظام الاحترافي على نخبة نوادي كرة القدم. وهكذا تسلم الأوليغارشيون قيادة الفرق، وقد راهنت الشرطة السياسية على قدراتهم المثبتة في الإفساد وشراء الذمم لاحتواء قادة جماهير كرة القدم وتخفيف حدة وحماسة النفس الاحتجاجي لدى الشبيبة. وعلى الرغم من ضخ رساميل ضخمة، فإن هذا التغيير في الوضع القانوني للفرق وإدارتها بشكل متخبط من قبل «رجال أعمال» متواطئين لم يقدما أي شيء لتحسين جودة كرة القدم الوطنية ولم يساهما - بل على العكس - في تقليص مظاهر غضب الجمهور.

9- Algeria-Watch, Salah- Eddine Sidhoum, *Algérie : La machine du mort,* Algeria-Watch, 15/07/2017.

10- Salima Mellah, *Le mouvement islamiste algérien entre autonomie et manipulation*, Comité Justice pour l'Algérie (Dossier N°19), Mai/2004.

لكـن أصحـاب القـرار الحريصـين عـلى صرف انتبـاه الـرأي العـام السـاخط عـلى رداءة المتحكمـين في السـلطة، وجـدوا في الدعـم غـير المـشروط الـذي تقدمـه شرائـح واسـعة مـن الجزائريـين للمنتخـب الوطنـي لكـرة القـدم رافعـة فعالـة لتحسـين المنـاخ العـام في البـلاد عـبر الإلهـاء.

غرافيتي من إنجاز مشجعي «شبيبة القبائل».

ولم يـتردد النظـام في اسـتغلال الغضـب الشـديد الـذي انتـاب الجمهـور عـلى إثـر الممارسـات العنيفـة التـي تعـرض لهـا المنتخـب الوطنـي الجزائـري في القاهرة/مـصر في تشريـن الثـاني/ نوفمـبر 2009 [11] لم تحـرك السـلطات في البلديـن سـاكناً لتهدئـة الخواطـر الغاضبـة، بـل فعلـت العكـس، فانخرطـت وسـائل الإعـلام المصريـة والجزائريـة في مزايـدة أنمـت الأحقـاد وسـاهمت في تسـميم الأجـواء.

> **تلبية لنداء «جبهة التحرير الوطني»، انسحبت الفرق الجزائرية نهائياً من كل المنافسات الرسمية. لكن أكبر انتصار حققته «جبهة التحرير الوطني الجزائرية» على مستوى الميدان السياسي كان «انشقاق» لاعبين جزائريين مشهورين في نيسان/أبريل 1958، وهم كانوا ينشطون في صفوف أكبر النوادي الفرنسية.**

وبتعليـمات مـن الرئيـس بوتفليقـة، نقـلَ الأسـطول الجـوي المـدني والعسـكري آلاف المشـجعين الجزائريـين المستشـيطين غضبـاً إلى السـودان - الـذي احتضـن مقابلـة العـودة - حيـث قدمـوا دعـماً حاسـماً للمنتخـب الوطنـي. وشـكل الانتصـار لحظـة تناغـم قصـيرة العمـر بـين الشـعب وأصحـاب القـرار. النجـاح الـذي حققـه «الأفنـاك» (جمـع فنـك، «ثعالـب الصحـراء»، التسـمية التـي تطلـق عـلى لاعبـي المنتخـب الجزائـري لكـرة القـدم) في الفـترة مـا بـين 2013 و2019، والـذي

11- Omar Benderra, *Algérie - Egypte : le match truqué des dictatures,* Algeria-Watch, 13/12/2009.

بلـغ أوجـه مـع إحـراز كأس افريقيـا للأمـم، احتفـى بـه الجمهـور في فـورات مـن البهجـة الجماعيـة التـي نـادراً مـا تكـررت منـذ الاسـتقلال.

ملاعب وحدة البلاد

هـذا لا يمنـع أنّ فواصـل البهجـة النـادرة هـذه قصـيرة المـدى، فالملاعـب ظلـت مراجـل يحتـدم فيهـا غضـب شـباب الطبقـات الشـعبية مـن غـير أي تحفـظ. وهـذا الغضـب لم يكـن موجهـاً إلى قـادة البـلاد فقـط، فالجمهـور الـذي طالمـا عـبر عـن تضامنـه مـع القضيـة الفلسـطينية لا يـتردد في التعريـض، دون مواربـة وبمصطلحـات حـادة جـداً أحيانـاً[12]، بمـن أداروا لهـا ظهورهـم[13].

شـكلت مظاهـرات «الحـراك» الشـعبية، التـي انطلقـت في 22 شـباط/فبراير 2019 وامتـدت بشـكل سريـع جـداً إلى كل مـدن البـلاد، فرصـة لجمـوع المتظاهريـن الضخمـة حتـى تظهـر قـدرات خلاقـة ومدهشـة في ابتـداع الشـعارات والأهازيـج واليافطـات. لكـن أكـثر مـا شـد انتبـاه الملاحظـين في البدايـة أغنيـة «لا كازا دل مراديـة»[14] التـي رددتهـا بشـكل جماعـي فئـات اجتماعيـة جـد متباينـة.

« ساعات الفجر وما جاني نوم

راني نكو أنسومني غير بشوية

شكون السبة وشكون نلوم

ملّينا المعيشة هاديًّا »

منـذ أول مقطـع، نفهـم أن شـاباً مـن الأحيـاء الشـعبية يتحـدث، أصابـه الأرق لدرجـة أنـه لم يتمكـن مـن النوم حتـى آذان الفجـر. فقـيرٌ هـو، إذ يسـتهلك قطعـة الحشـيش خاصتـه بتقتـير، ونشـعر بأنـه تائـهٌ في تسـاؤلات وجوديـة حـول أسـباب تعاسـته. وهنـا تتحـول الـ«أنـا» التـي يتحـدث بهـا إلى «نحـن» ليقـول: «نحـن مللنـا مـن هـذه المعيشـة».

« في الأولى نقولو جازت، حشاوهالنا بالعشرية

في الثانية الحكاية بانت: لاكازا دل مرادية ».

هنـا، تنحـدر القصـة إلى درس في التاريـخ الشـعبي. في البدايـة، نالـوا منـا عـن طريـق تخويفنـا بـ«العشريـة» (عَقْـد الحـرب الأهليـة). لكـن في العهـدة الثانيـة، أصبحـت الأمـور أكـثر وضوحـاً، صرنـا في «لاكازا دل مراديـة» («المراديـة» مصطلـح يشـير الى القـصر الجمهـوري وذلـك بحسـب مـكان وجـوده)، تمامـاً مثـل مسلسـل «لا كازا دي بابيـل» Casa del Papel: في الاختـلاس.

« في الثالثة البلاد شيانت مالمصالح الشخصية

12- الهتافات منقولة عن مشجعي الإتحاد الرياضي لمدينة الجزائر في 2018 (انظر رابط الفيديو في المقال على موقع «السفير العربي»).

13- *Alger s'excuse auprès de Riyad pour une banderole dans un stade*, Middle East Eye (édition française), 20/12/2017.

14- عمر زليق، «سمفونية جزائرية غير مكتملة»، موقع «السفير العربي»، 2021/01/07.

« فِالرابعة البوبية ماتت وما زالت القضية »

في العهدة الثالثة، خسَّ وزن البلد من كثرة مصّ دمائه عن طريق المصالح الشخصية، وفي الرابعة، ماتت الدمية (بوتفليقة)، ومع ذلك، لم ننته من هذه القصة.

« الخامسة راي تسويفي بيناتهم راي مبنية

والباسي راو أرشيفي ب لافوا تاع الحرية »

ها هي العهدة الخامسة المدبرة فيما بينهم قد أعلنت، لكن الماضي محفوظٌ في الأرشيف بصوت الحرية.

« فيراجنا الهدرة بريفي يعرفوه كي يتقيا

مدرسة ولازم «سي في» بيرو محو الأمية »

«فيراجنا» («الفيراج» هو المدرجات الجنوبية التي يجتمع فيها الألتراس) نتحدث فيها بشكل خاص فيما بيننا، وحين نتقيأ كلماتنا يتعرفون علينا. هي مدرسةٌ، يلزمك سيرة ذاتية لتنضم إليها، وهي مكتب لمحو الأمية.

تأثير أجواء الملاعب وثقافة الألتراس على مظاهرات «الحراك».

يبدو أن كثيرين يحفظون كلمات هذه الأغنية عن ظهر قلب، وهي مستوحاة مباشرة من مسلسل «لا كازا دي بابيل» التلفزي الإسباني الذي حظي بنجاح جماهيري كبير إثر عرضه على منصة «بث متدفق/ستريمينغ» مشهورة، «أنتجها» مشجعو «الاتحاد الرياضي لمدينة الجزائر» («اتحاد العاصمة»). هذا الفريق، لطالما اعتبر جمهوره مرجعاً في مجال تنشيط الملاعب، وعُرف بالقدرة الإبداعية الكبيرة لمشجعيه والتي تجمع ما بين السخرية والتهكم والاحتجاج السياسي.

حتى وإن انطفأت المظاهرات في المدن الكبرى بسبب الأزمة الوبائية والإنهاك وضراوة القمع، فإن أهازيج المشجعين التي يصدحون بها بـ«الدارجة» - اللهجة التي يتحدثها سكان العاصمة لكن يفهمها كل الجزائريين- ما زالت تعبّر عن إحباط شبيبة مسيسة وصافية الذهن تعي الرهانات والمسؤولية المطلقة للطبقة الحاكمة.

هؤلاء الملايين من هواة كرة القدم لا ينتمون إلى أي فصيل معارض وكل ما يقومون به هو الإفصاح عن حبهم لبلادهم. هؤلاء الشباب المتحدون (irrédentistes) والفطنون، لديهم يقين بأن آفاق تحسن الأوضاع لا يمكنها أن تأتي من ديكتاتورية عسكرية - بوليسية غاشمة وفاسدة كلياً. كلهم يعرفون أن الشيوخ عديمي الأخلاق والكفاءة القابعين في قمة النظام هم المسؤولون الرئيسيون عن كل العرقلات والآفاق المسدودة التي تعترض طريقهم.

عبر كرة القدم، ومن أعلى المنبر الوحيد الذي ما زال متاحاً له، يعلن الشباب الجزائري، بلا كلل ولا ملل، رفضه للظلم والإحتقار المسلّطين عليه. كرة القدم في فترة الثورة ضد الاستعمار أو في زمن المطالبة بالحريات والكرامة، تظل دائماً إحدى نواقل المطالب السياسية للشعب الجزائري.

المغرب

«قبلتي (قبلتِ) بالتطبيع وما قبلوا بيك»، ألتراس «الوداد» البيضاوي، المغرب.

الألتراس المغربي: نصيرٌ للجماهير، خصمٌ للسلطة

سعيد ولفقير

كاتب وصحافي من المغرب

تنتج الألتراس خطابات تجعل منها حركة غير معزولة عن القضايا الشعبية، السياسية والمطلبية. وعدا الأهازيج، وأشهرها «في بلادي ظلموني» التي تدين السلطة، فهي دافعت عن مطالب الحراكات الجهوية التي مسّت أطراف المغرب المنسي. كما دافعت عن قضية الأساتذة المتعاقدين. هذه البنية منظّمة على مستوى الشكل والانتماء، لكنها غير مهيكلة مؤسساتياً، ما يجعلها عصية على الاحتواء من قبل السلطة الأمنية والسياسية.

«سِيرْ..سِيرْ..سِيرْ...»

عَلَت حناجر الجماهير المغربية بهذه العبارة الحماسية في كل أرجاء الملعب، أملاً في أن يصل المنتخب المغربي إلى انتصارات متتالية.

وما حصل أن المنتخب المغربي مضى قُدُماً الى الأمام خلال مونديال كرة القدم الذي جرى في آخر شهرين من العام 2022 في الدوحة، و«بيَّض وجه» البلد ودول منطقتنا وأفريقيا بأسرها، ووحّدها في لحظة شعورية إيجابية نادرة الحدوث. ولم تغب عناصر الألتراس المحلية عن هذا الحدث، فكانت حاضرة بقوة كعادتها بمزيد من الشعارات والتيفوهات والاحتفال بالهتافات.

وبعيداً عن فرحة المونديال الأخير، جرت مياه كثيرة تحت جسر كرة القدم المغربية وأنساقها ما بين الأمس واليوم، من أحداث وقرارات وسياسات كان للسلطة الحاكمة دور بارز في توظيفها لصالح مآرب سياسية وأخرى لا يُصرّح بها علانية.

عودة إلى سطور الأمس..

تضاربت الروايات بشأن تاريخ تعامل المغاربة مع هذه اللعبة الشعبية في إطارها المنظّم. فالرواية الأولى تفيد بأنهم اكتشفوا كرة القدم منذ أواسط القرن الـ19 عن طريق البحّارة الإنجليز، إذ كانوا يلعبونها وهم ينتظرون الانتهاء من إصلاح سفنهم كلما حلّوا بالموانئ المغربية. بيد أن الرواية الثانية تؤكد أن هذه اللعبة وصلت إلى المغرب عن طريق الجنود والمستعمِرين الفرنسيين.

وتشير المصادر إلى أن سنة 1916 كان تاريخ إجراء أول منافسة بين فرق محلية وفي دوري منتظم. بينما يبدو بحسب مصادر إعلامية محلية أن أول مباراة رسمية على الأراضي المغربية جرت خلال العام 1913 في قرية «عين تاوجطات» بين مدينتي فاس ومكناس (وسط المغرب).

في المقابل، تعود قصة التأسيس الأول للأندية المشكّلة حالياً إلى عام 1937، حينما قرر المقيم العام الفرنسي الجنرال «شارل نوغيص» (Charles Noguès) الموافقة على تأسيس نادي «الوِداد» البيضاوي لكرة الماء الذي تقدّم بمشروعه كلٌّ من محمد وعبد اللطيف بنجلون. مضت سنوات «الحماية الفرنسية»، وتخللتها شعبية واسعة لهذا النادي «الوطني»، إذ حظي بدعم منقطع النظير من طرف المغاربة، وتأسّس لاحقاً عدد من الفرق التي ستصنع مجد الكرة المغربية، أمثال «المغرب الفاسي» (1946) و«الكوكب المراكشي» (1947) و«الرجاء البيضاوي» (1949).

كان إذاً تأسيس هذا النادي وسواه سلاحاً وظفته المقاومة الوطنية لمواجهة الاستعمار، وسبيلاً لحشد وتعبئة المغاربة من خلال نشر خطابات ورسائل للشعب على أن كرة القدم ليست مجرد وسيلة للتنفيس والتسلية، وإنما هي لتعزيز الروح الوطنية، وتحقيق الانتصارات الكروية، باعتبارها نصراً معنوياً على الأندية الموجودة بالبلاد وهي كانت ذات الأغلبية الأوروبية. وهذا ما حصل فعلياً مع فريق «الوِداد البيضاوي»، الذي توج بلقب البطولة عام 1948، بصفته أكبر ناد يضم لاعبين محليين.

في مرحلة ما بعد الاستعمار، تأثر الملك الراحل الحسن الثاني بالتجربة الإسبانية التي بُنيت على رعاية الجنرال فرانكو للفرق الإسبانية سعياً منه لإلهاء الشعب عن قضاياه وهمومه العالقة. لم تكن الرياضة عامة وكرة القدم

على وجه الخصوص مجرد لعبة تخص الشعب لوحده، بل تهم السلطة الحاكمة أيضاً، التي سعت إلى احتضانها ودعمها وتمويلها.

خلال عام 1986، سجّل المنتخب المغربي أول إنجاز تاريخي له في كرة القدم، إذ كان أول بلد عربي وأفريقي يتأهل إلى الدور الثاني لكأس العالم المُقام في المكسيك. لقد نافس المنتخب ذو اللونين الأحمر والأخضر وواجه أقوى المنتخبات الكروية. خطف هذا الإنجاز أنظار واهتمام الملك الراحل، إذ سعى خلال هذه الفترة وما بعدها إلى توظيف كرة القدم كوسيلة لاستعراض صورة مختلفة عن المغرب، تتمثل في أنه بخير ويحقق الإنجازات الرياضية المشرّفة وشعبه ينعم بالهناء، وهي محاولة لتغطية واقع صعب كان يمر به البلد المنهك بالصراعات السياسية الداخلية (محاولات الانقلاب العسكرية، قوة المعارضة اليسارية، احتجاجات شعبية، قمع عالي العنف، واعتقالات وسجون مرعبة...) والإقليمية («حرب الرمال» مع الجزائر)، وأزمات الفساد والاستبداد ومعضلات اجتماعية وأخرى اقتصادية.

الحسن الثاني مع لاعبي الجيش الملكي.

تنامى اهتمام السلطة الحاكمة بكرة القدم، فنصر كروي يعني بالضرورة نصر للملك، الذي لا يتوانى عن استقبال والتقاط صور مع لاعبي هذه الكرة في كل تتويج ووفق طقوس تقليدية.

تحَوَّلَ هذا الحرص الكبير للحاكم تجاه هذه اللعبة إلى «نقطة محورية في تدبير القطاع الرياضي تنطلق منها

كل القرارات التي تهم التدبير اليومي لبعض الجامعات الرياضية»[1]. ومن بين ما كان يحرص عليه الملك الراحل، التدخل بصفة شخصية في إسداء توجيهات تقنية إلى «غي كليزو» المدرب الفرنسي لـ«فريق الجيش الملكي» الذي كان الملك وراء تأسيسه، فكتب له بخط يده في 26 آب/ أغسطس 1962، خلال مباراة الجيش الملكي وريال مدريد، في إطار الترتيب لـ«كأس محمد الخامس»، ملاحظات يقول فيها بالفرنسية[2] : «ممتاز، جيد، نحن لسنا سخفاء، اللاعب «مختطف» متخبِّط وليس بارعاً، حاول أن تضع اللاعب مصطفى في قلب الهجوم... طبّق تكتيك وأسلوب الدعم».

نحو أندية ربحية

مؤخراً، لم تعد السلطة الحاكمة تتدخل بشكل علني ومباشِر في تسيير بعض الأندية كما حصل مع «نادي الجيش الملكي» إبان ستينيات القرن الماضي. ولعقود طويلة، أديرت الأندية الكروية كجمعيات رياضية تؤطرها قوانينها الأساسية والداخلية، التي تتولى عمل المكتب وأهدافه ومداخيله ومصاريفه المالية، علاوة على تحديد الجمعيات العمومية التي تعتبر أعلى هيئة تقريرية لانتخاب هياكله.

ولم تعد الأندية الكروية مصنّفة كجمعيات بالضرورة، بل هناك سعي لتحويلها إلى شركات رياضية بناءً على أحكام القانون رقم 30.09 الذي ينص على أنه «يمكن لجمعية رياضية القيام بعملية المساهمة بأصولها وائتماناتها جزئياً أو كلياً في شركة رياضية». وينطبق قانون تحويل النوادي إلى شركات رياضية على 16 فريقاً من الدوري الاحترافي و8 فرق من الدرجة الثانية. وقد شاركت معظم الأندية في خطة تطوير بناها المؤسساتية والمالية بغية نقل ممتلكات الجمعيات الرياضية إلى ملكية شركات، وذلك في أجل يمتد حتى 30 حزيران/ يونيو 2023.

بيد أن هذا القانون لن ينهي حياة الجمعية، بل تكمن العملية في ما يشبه التفويض، أي أن الجمعية ستوكل الشركة مسألة تدبير شؤونها، فالقانون ذاته ينص على أن الأندية «تتخذ شكل شركة مساهمة، يتكون رأسمالها وجوباً من أسهم إسمية، حيث يجب أن تتملك الجمعية الرياضية 30 في المئة على الأقل من أسهمها، و30 في المئة على الأقل من حقوق التصويت»[3].

وظفت المقاومة الوطنية تأسيس «نادي الوِداد البيضاوي» (نسبة الى مدينة الدار البيضاء) وسواه سلاحاً لمواجهة الاستعمار، وسبيلاً لحشد وتعبئة المغاربة من خلال نشر خطابات تقول أن كرة القدم ليست مجرد وسيلة للتنفيس والتسلية، وإنما هي لتعزيز الروح الوطنية، وتحقيق الانتصارات الكروية باعتبارها نصراً معنوياً على الأندية الموجودة بالبلاد ذات الأغلبية الأوروبية وقتذاك. وقد توج «الوِداد» بلقب البطولة عام 1948.

تُبَرَّر هذه الخطوة الانتقالية للأندية بأنها ستساهم في خروج الكرة المحلية من مربع الهواية إلى آخر يمتثل لشروط الاحتراف، وتحويل الرياضة إلى سوق اقتصادية يلعب فيها أكثر من مستثمِر وفاعل اقتصادي بغية جعل

1- «اليازغي: الحسن الثاني وظف الكرة لدعم مشروعية النظام»، موقع «اليوم 24»، 2018/06/17.

2- Parfait, c'est bon, on n'est pas ridicules, Mokhtatif est 1 (un) gros balourd, tachez de mettre Mustapha l'avant-centre... appliquer le jeu de soutien.

3- مهدي حبشي، «هل تغري كرة القدم المستثمرين الخواص بالمغرب؟»، موقع SNRT News، 2020/12/20.

هـذه المؤسسـات «منتعشـة» بمـوارد إضافيـة، خلافـاً لمـا كان عليـه الحـال في العقـود الماضيـة، إذ كانـت هـذه الأنديـة تعتمـد بشـكل شـبه أسـاسي عـلى دعـم الدولـة والسـلطات المحليـة. هـذا الدعـم العمومـي ناهـز 1.7 مليـار درهـم مخصـص لأنديـة الدرجـة الأولى أو الـدوري الممتـاز، منحتـه الجامعـة المغربيـة لكـرة القـدم خـلال الموسـم 2018-2019. كـما أنّ البـث التلفـزي يُعتـبر أحـد أبـرز مصـادر الدخـل للأنديـة الكرويـة، ويقـضي القانـون 09-30 عـلى أن «هـذه المداخيـل تـوزع بنسـبة 50 في المئـة عـلى نحـو تضامنـي».

يـرى خـبراء ضليعـون في الشـأن الكـروي أنّ خطـوة تحويـل الأنديـة إلى شركات سـتكون سـبباً في القطـع مـع مسـألة ارتباط التدبـير المـالي للنـادي بشـخص معـين، بمـا في ذلـك الرئيـس، إذ أظهـرت أن مـن بـين مسـببات الأزمـات التـي سـجلتها تلـك الأنديـة سـوء تدبـير أشـخاص بعينهـم، أو «ارتبـاط ضيـق بـين الوضـع المـالي للنـادي وذلـك الشـخص».

تيفوهات الألتراس.

مـن ناحيـة أخـرى، يبـدو أن التحـول لم يحصـل وفـق الـشروط المطلوبـة، إذ بـات شـكلياً. فبعـد ثـلاث سـنوات مـن إصـدار هـذا القانـون، مـا زال مسـتثمِرون لا يغامـرون أو يحجمـون عـن ضـخ أموالهـم لصالـح الفـرق الكرويـة المحليـة. ومـن بـين المشـاكل الحـاضرة إشـكالية توزيـع أربـاح البـث التلفـزي، إذ ينـص القانـون عـلى تحديـد الجامعـة الملَكيـة المغربيـة لكـرة القـدم معايـير الاسـتفادة حسـب الاسـتحقاق، بيـد أن الجامعـة لم تنفِّـذ ذلـك بعـد. وبنـاءً عليـه، تظـلّ مداخيـل البـث تـوزع عمليـاً بنسـبة 100 في المئـة بشـكل تضامنـي. وبالتـالي «فلـن يقبـل أي مسـتثمر بالاسـتثمار في نـادٍ كبـير يحقـق ملايـين المشـاهدات، لكنـه يسـتفيد مـن مداخيـل متسـاوية مـع أنديـة لا يتابعهـا سـوى عـشرات أو مئـات الأشـخاص»[4].

4- مهدي حبشي، «لماذا يمتنع رجال الأعمال عن الاستثمار في الأندية المغربية؟»، منصة «إقتصاد.كوم»، 2021/12/06.

ليسوا «مشاغبين»... إنهم أشبه بكتلة أحجار

لا تستطيع الأندية الكروية المغربية، بكل ما تملك من ترسانة قانونية وتمويلية، أن تعيش بمعزل عن مجموعات الألتراس اللانظامية، إذ تعتبر سنداً معنوياً ورياضياً لها في كل المباريات. لكن كثيراً ما يتم «توظيف هذه المجموعات من طرف مكاتب الأندية الرياضية لتصفية الحسابات فيما بينها»[5]. وهذا ما يتسبب في وقوع عنف بين مشجعي هذه المجموعات، يرافقها تخريب للمنشآت العمومية والخاصة وضرب وجرح متبادل يصل إلى حد القتل.

لكن، لا تحمل كل مجموعات الألتراس هذه الصورة السيئة النمطية التي يصدّرها الإعلام المحلي. وهذا ما تؤكده آراء مختصة بالشأن الكروي، إذ ترى بأن هؤلاء المشجِعين ليسوا مشاغبين، وأنه لا يمكن اختزالهم ضمن فئات الطلاب أو الشباب العاطل والمياوم أو الذين يعملون في مهن «الترميق» (أي أعمال ذات طابع مؤقت ومناسباتي، أو ما يسمى بالفرنسية Bricolage). وهم شيء مختلف عن «الهوليغان» المشاغبين الذين يرافقون الفرق الإنجليزية إلى الملاعب، ولا يعبرون عن «مواقف» تحمل مضموناً اجتماعياً أو سياسياً. وهذا المعطى ذو أهمية في تأطير بعض تنظيمات الألتراس للقيام بأعمال وأنشطة أخرى موازية غير التشجيع الكروي، مثل تقديم المساعدات للمحتاجين في القرى النائية، والمساهمة في حملات التبرع بالدم...

يوجد حالياً في المغرب العشرات من مجموعات الألتراس، وقد بدأ تأسيسها عام 2005، ولعل أبرزها «ألتراس عسكري» المساند لفريق العاصمة، «الجيش الملكي»، و«ألتراس غرين بويز» المناصر لفريق «الرجاء البيضاوي»، أما فريق «الوِداد البيضاوي» فيشجعه «ألتراس وينرز».

> **لا تستطيع الأندية الكروية المغربية، بكل ما تملك من ترسانة قانونية وتمويلية، أن تعيش بمعزل عن مجموعات الألتراس اللانظامية، إذ تعتبر سنداً معنوياً ورياضياً لها في كل المباريات. وهم مخالفون عن «الهوليغان» المشاغبين الذين يرافقون الفرق الإنجليزية خصوصاً الى الملاعب، ولكنهم لا يعبرون عن «مواقف» تحمل مضموناً اجتماعياً أو سياسياً.**

تنتظم جماهير الألتراس، المقدر تعدادها بالمليون مشجّع، ضمن مجموعات عمل صغيرة تدعى «توب تويز»، وتُكلَّف كل واحدة منها باختصاص يشمل إعداد وتصميم اللوحات الفنية («التيفوهات»)، وإدارة عملية التشجيع في المدرجات، والسهر على متابعة مصادر تمويل المجموعة، وتنظيم الرحلات بين المناطق بغية حضور مباريات الفريق.

غالباً ما ترفض مجموعات الألتراس الدعم المالي من جهات خارجية. فهي تحقق مردودها المالي من خلال المساهمات الفردية لأعضائها أو عن طريق عائدات مبيعات الأعلام، والقبعات والقفازات، والأقنعة والشارات... وتساهم عملية الانخراط في الألتراس - حيث يجري تسليم بطاقات عضوية للمشجعين (وهو ليس إجراء رسمياً، بمعنى أن السلطات تحظر أنشطة هذه المجموعات ولا تعترف بشرعيتها وبحقها في أن تكون مؤطرة بتشريعات) في ضمان العائدات المالية، إذ يؤدى مقابل ذلك اشتراكٌ تحَدَّد قيمته من طرف المجموعة.

5- محمد مالك الزواوي، «المتطرّفون أخلاقياً»، موقع «الجزيرة نت»، 2017/05/02.

للألتراس أربعة مبادئ مُعتمدة لتصنيف أي جماعة مشجعين على أنهم فعلياً ألتراس كروي، وتشمل:

أولاً: الاستمرار في التشجيع والغناء أثناء المباراة بغض النظر عن النتيجة، من خلال اعتماد شعارات ذات إيقاع غنائي قوي الصدى، تمتاز أحياناً بإشارات ورموز وحركات تبتغي تخويف الخصوم والرد على رسائلهم الرمزية. ويكلّف في العادة قائد الجماعة المشجعة (الـ«كابو»)، إذ يكون مسؤولاً عن اختيار الشعارات والهتافات والأغاني وتوقيتها، وتنظيم الاستعراضات كحركات الأيدي والتشكيلات، ويعتلي هذا «الكابو» مكاناً عالياً في المدرج حتى يلتزم المشجعون بمتابعة تعليماته أثناء المباراة.

ثانياً: الامتناع عن الجلوس أثناء المباريات، فالمشجعون يحضرون بغرض المؤازرة والتشجيع المتواصلَين حتى انتهاء المباراة وليس بهدف التسلية والاستمتاع اللّذين يميزان المشجِّع العادي.

ثالثاً: الالتزام بحضور كل المباريات داخل مدينة النادي وخارجها مهما كانت التكلفة والمسافة، وللقيام بهذا الأمر تستعين المجموعة في التحشيد لحضور المباريات خارج مدينة النادي، بوسائل نقل رخيصة، كما تقوم بتنظيم موكب «كورتيج» يضم عناصر المجموعة التي يلعب فيها فريقهم، وتهدف هذه الخطوة إلى استعراض مكامن قوة النادي أمام وسائل الإعلام، باعتبار أن له مشجعين أقوياء يسافرون خلف فريقهم إلى أي مكان وأياً كانت التكلفة.

رابعاً: الولاء والانتماء لمقعد الملعب، إذ يختار الألتراس مدرجاً منزوياً عن المشجعين العاديين، ويمتاز بمقاعد ذات أسعار رخيصة، ويدعى هذا المكان «الكورفا» (وهو تعبير إيطالي يقصد به «المنحنى» لتعيين مكان وجود المجموعة المؤيدة للفريق في مدرجات الدرجة الثالثة). ويكون مكاناً مخصصاً للتشجيع والمؤازرة ورفع «اللوغو» الذي يحمل إسم وشعار المجموعة وأيضاً يحمل «شرف» المجموعة نفسها.

لا تمتثل الألتراس لأطر القوانين وتشريعاته. إن بنية هذا التأسيس غير المؤسساتي أشبه بكومة أحجار غير منظمة. لكن هذا لا يمنعه من أن تكون عناصره أكثر صلابةً وتماسكاً، إذ يمنحون وقتهم وكيانهم وولاءهم اللامشروط لناديهم، ما يجعل اللاعبين يمضون بشكل حيوي وتفاعلي، فيصبحون أكثر قدرة على التحرك والمبادرة بلا تردد. ويحرك هذا النظام اللانظامي اندفاع منتميه الشباب وقدرتهم على الاندماج والذوبان بسلاسة ضمن هذا النسق ككتلة واحدة تغيب فيها الحالة الفردية، ويتعزز فيها معطى نكران الذات والانتصار لقيم الجماعة وخطاباتها وشعاراتها.

تبدو هذه البنية منظّمة على مستوى الشكل والانتماء، لكنها غير مهيكلة مؤسساتياً، وهو ما يجعل الألتراس عصية على الاحتواء من قبل السلطة الأمنية والسياسية. فكم من مرة حاولت السلطات بتشريعاتها (قانون 09-09 الخاص بمكافحة شغب الملاعب)، وعنفها المادي أن تحتوي هذه الجماعات وتضيّق على أنشطتها، تارة بمسوغات القانون وطوراً بـ«العصا والجزرة». لكنها في النهاية لم تنجح في ضبطها. ففي الوقت الذي مُنعت من دخول الملاعب خلال السنين القليلة الماضية، اكتشفت السلطات والقائمون بالشأن الرياضي بأن الألتراس تَركت خواءً وركوداً جليَّيْن في المدرجات، بشكل لا يمكن تعويضه بتنظيم آخر.

الهتافات... ليست مجرد صرخة

تواجه حركات الألتراس حصاراً غير معلن من قبل السلطة، لذا تبحث عن منافذ منفلتة لمواجهتها ومقاومتها،

والأغاني إحداها. كانت أغنية «في بلادي ظلموني» التي أنشدها ألتراس «إيغلز» المساند لـ«الرجاء البيضاوي» عام 2017 سبباً في أن تحقق تجربة الألتراس المغربي شهرة على المستويين الإقليمي والعالمي. فالأغنية صارت على لسان كل الفرق والمشجعين وألتراسات البلد وبقية دول منطقتنا، لأنها لامست محاولات السلطات لضبط وقمع أنشطة هذه الجماعات تحت ذريعة محاربة شغب الملاعب الذي تلقبه الألتراس بـ«زيرو خاف»(صفر خوف).

تختزل هذه الأغنية السلطة الأمنية والسياسية في صورة الظالم، في حين تُبرز المشجِعين دائماً في مكانة المظلوم والمقموع، وتماهي بينه وبين الظروف البائسة في معيش الناس، وتتكلم بصيغة الجمع هنا، فيظهر هذا الجانب من خلال توظيف معجم لغوي ذي صلة بالقمع والاعتداء والظلم والحرمان، من قبيل: «ضيعتوها/ هرستوها/ قمعتوها/ وقتلتو/ ومنعتو/ تحاربو/ تهمتو/ ضيعتو»[6].

لا يقتصر تضامن الألتراس المغربي على قضايا مجتمعه المحلي بل يتسع ليشمل دول لها ثقلها الوجداني على المستوى الإقليمي، كقضية فلسطين التي تفاعل معها ألتراس «ماتادوريس» المساند لـ«فريق المغرب التطواني» (شمال المغرب)، برفع تيفوهات مساندة، كما دعا إلى المشاركة في وقفة تضامنية في إحدى ساحات تطوان. وكذلك فعل ألتراس «وينرز». ولا تخلو مبارة إجمالاً من رفع أعلام فلسطين.

تخاطب أغاني الألتراس الآخر (السلطة السياسية أو الأمنية) بصيغة المجهول، فكثيراً ما لا تُذكَر السلطة المعنيّة باسمها المحدد بل تحتج على طرف يُستنتَج منه أنه متحكِّم ومهيمِّن، ويمارس نوعاً من العنفين الرمزي والمادي على المهيمَن عليهم. ويمكن الاستدلال بكلمات: «مابغيتونا نقراو» (لا تريدون أن ندرس)، «مابغيتونا نخدمو» (لا تريدون أن نعمل)، «مابغيتونا نوعاو» (لا تريدون أن نكون واعين)، «وسكتونا بالفاليوم» (أسكتونا بالمخدِّر)، «خلاونا كاليتامى» (تركونا كاليتامى).

تتنوع دلالات[7] أغاني الألتراس بين حمولات مشبعة بالتحفيز الذاتي : «ما نلاشيش ما نلاشيش» (لن أستسلم)، وثانية محملة بمعاني الشكوى والغبن والمظلومية: «لمن نشكي حالي» (لمن أشكو حالي)، «راني مغبون» (إني مغبون)[8]. وأخرى مثقلة بتحدي ومعارضة قرارات السلطة السياسية والأمنية: «جاي نَكْلاشي الحكومة» (جئت لأواجه الحكومة)، و«مَغنمْشيوشْ لعسْكَرْ» (لن ألبي نداء الخدمة العسكرية الإجبارية)[9].

وتزداد جرعات الاحتجاج في أغنية «صوت الشعب» التي أداها «ألتراس الوينرز»، إذ تصدح بأعلى درجات المواجهة: «الحرية.. اللي بغينا (التي أريد) يا ربي.. الحرية.. تفاجي ليا (تفرج) قلبي». وتكرار عبارة «الحرية» يؤشر إلى مطلب عصي المنال في ظل قوانين وأنساق تضيق بين الفينة والأخرى على عناصر الألتراس أنفسهم الذين تعتبرهم السلطة مجرد «مراهقين وأطفال لا يفقهون شيئاً»، وتريدهم أن يظلوا «مجرد عبيد راضين عن الوضعية الحالية» (بغاونا نكونو إسكلاف ونارضاو بالوضعية).

6- حسن الطويل، «الخطاب الاحتجاجي في أغاني الألتراس.. قراءة بلاغية»، مجلة «ضاد»، 2022/12/08.

7- سعيد بنيس، «تمثُّلات الخطاب الاحتجاجي للألتراس في المغرب وتأثيراته السياسية»، موقع «مركز الجزيرة للدراسات»، 2019/07/04.

8- كلمات من أغنية أداها ألتراس «لوس كالاس» لفريق الدفاع الحسني الجديدي» وهو نادٍ كروي مغربي في مدينة الجديدة في غرب البلاد.

9- كلمات من أغنية «في بلادي ظلموني».

ضد الظالم، مع المظلوم

تنتج جماعات الألتراس خطاباً يجعل منها حركة غير معزولة عن القضايا الشعبية وهموم فئات أساسية من المجتمع المغربي، مثل دفاعها المستميت عن مطالب الحراكات الجهوية التي مسّت أطراف المغرب المنسي.

كما أنها دافعت عن قضية الأساتذة المتعاقدين، أو من يسمون أنفسهم «الأساتذة المفروض عليهم التعاقد»، وهذا التضامن حصل من قِبَل ألتراس «ريد مان» مشجع «النادي المكناسي»، إذ حمل لوحة مكتوب عليها «لن تتقدم البلاد ما دامت تسيء للأستاذ»، رداً على العنف البوليسي الممارَس على هذه الفئة أثناء احتجاجها في الشارع ومطالبتها بتحقيق مطالبها المهنية في الإدماج في الوظيفة الحكومية.

لم يكتفِ هذا الألتراس برفع اللوحة التضامنية، بل أصدر بياناً يدافع فيه عن هؤلاء المدرّسين: «في عهد الحريات بعصر النهضة وحقوق الإنسان، يعامَل الأستاذ - بغض النظر عن قضيته وملفه وحقه في التظاهر - بشتى أنواع القمع الوحشية، وبالتفريق عن طريق ضرب الرجال والنساء والتحرش بهن».

لا يقتصر تضامن الألتراس المغربي على قضايا مجتمعه المحلي بل يتسع ليشمل دول لها ثقلها الوجداني على المستوى الإقليمي، كقضية فلسطين التي تفاعل معها ألتراس «ماتادوريس» المساند لـ«فريق المغرب التطواني» (شمال المغرب)، برفع تيفوهات مساندة، كما دعا إلى المشاركة في وقفة تضامنية في إحدى ساحات تطوان.

وعلى الخط نفسه، تفاعل ألتراس «وينرز» بشكل سريع حين اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بالقدس عاصمة لإسرائيل، ونشر بياناً قال فيه بأن «القدس عاصمة فلسطين أحب من أحب وكره من كره. فلسطين...هي القضية الكبرى والانتصار الأعظم الذي ينتظره الجميع». لم يكتف هذا الفصيل الكروي باستنكار هذه الخطوة، بل استعرض أيضاً لوحة فنية كُتب فيها «قبلتي (قَبِلتَ) بالتطبيع وما قبلو(لم يقبلوا) بيك»، وهي إشارة ضمنية إلى الجهات السياسية التي وافقت على خطوة التطبيع مع إسرائيل أواخر عام 2020.

وفي المحصلة..

يمكن القول بأن الألتراس خُلقت لتتمرد على أنساق السلطة السياسية والأمنية وسياساتها وخطاباتها ورأسماليها المادي والرمزي. تبدو السلطة هنا بمثابة خصم للألتراس، بخلاف علاقة هذه الحركات مع الجماهير التي تعتبر بمثابة نصير لها في المرافعة والاحتجاج والدفاع عن قضاياها الشائكة والعالقة. وعليه، صارت هذه الجماعات غير المؤسساتية رديفة للمؤسسات الوسيطة كالأحزاب والنقابات. تصرخ وتصدح، تغني وتهتف، وتتضامن بدون مواربة، كما هو حاصل مع مشهد مشجعي الألتراس في الحافلات العمومية، في الملاعب، في الساحات، وفي كل مكان.

السودان

المواقف السياسية المعارضة للسلطة على واجهة مبنى نادي «المريخ».

كرة القدم في السودان... كيف مُزِجت بالسياسة؟

خالد فتحي

صحافي من السودان

فشلت محاولات سيطرة السلطة وأجهزتها على القطاع الرياضي، وانتظم طيف واسع من الرياضيين السودانيين، خاصة لاعبي ومشاهير كرة القدم، في مقاومة شرسة للنظام. كما أظهروا تعاطفاً كبيراً مع الشهداء الذين ارتقوا خلال الاحتجاجات الشعبية التي قابلتها السلطة بقمع وحشي. وشكّلوا حضوراً لافتاً بميدان الاعتصام أمام القيادة العامة للجيش في الخرطوم عام 2019.

هفّت أفئدة السودانيين لكرة القدم وتعلقت بها منذ أبصروا الغزاة في الجيش البريطاني وهم يركلونها بخفة ومهارة، في ميادين أرض معسكرات الجيش الإنجليزي الفسيحة بالخرطوم.

كان الجيش البريطاني الغازي قد نجح في مهمته «حملة إعادة فتح السودان» بقيادة الجنرال اللورد «كتنشر باشا»، أول حاكم بريطاني على السودان عام 1899.. كما هدأت عاصفة النار والدم، وسكت دوي «مدافع مكسيم» بنتائجها المُروعة التي تبدت بمجازر الغزاة ضد «المهدويين»[1] (أنصار الإمام المهدي بالسودان ودولتهم، خاصّة معركة أمدرمان في أيلول/سبتمبر عام 1898). ومذّاك، تربعت كرة القدم على عرش الرياضة بالسودان، مستبّدةً بالمشجعين المهووسين بنشوتهم وفرحتهم إلى درجة خلع عمائمهم، وإضرام النار فيها.. وهذا جذب أنظار رجال الحكم والساسة، فجعلوها محط اهتمامهم الشديد كما حاولوا السيطرة عليها بشتى الطرق، سواءً في العهد الاستعماري أو في العهود الوطنية السودانية بشقيها العسكري والديمقراطي، واستخدموا كافة وسائل الترغيب والترهيب لفرض سيطرتهم، وكثيراً ما نقموا عليها إنْ تمنعت، وإنْ عجزوا عن تطويعها.

لا يزال اليوم الأسود في تاريخ كرة القدم في السودان مستوطناً في الذاكرة. ففي 24 نيسان/ أبريل 1976، أصدر الرئيس السوداني الأسبق «جعفر نميري» قراراً بإعلان الرياضة الجماهيرية وحل جميع الأندية والاتحادات الرياضية، بذريعة أحداث شغب عادية في مباراة فريقي «الهلال» و«المريخ» المتباريين على كأس «الثورة الصحية». وقتها كانت كرة القدم في السودان تتبوأ مقعدها مع الكبار في القارة الأفريقية، بعدما ظفر المنتخب السوداني بكأس «الأمم الأفريقية» عام 1970، وكاد أن يبلغ كأس العالم في 1974.

المحاولات الحثيثة لانتشال الكرة السودانية، أفلحت في مناسبات متباعدة، كفوز «نادي المريخ» بكأس الكؤوس الأفريقية 1989، وبلوغ «الهلال السوداني» المباراة النهائية لبطولة الأندية الأفريقية في 1987 و1992، ووصول المنتخب السوداني لنهايات كأس الأمم الأفريقية عام 2008، قاطعاً غياباً دام 32 عاماً. وخلال نسختي البطولة الأفريقية 2012 و2022، تكرر بروز المنتخب السوداني، بيد أن تلك الاجتهادات ظلت منفردة لا تصلح لبناء منظومة رياضية بالأسس المتعارف عليها.

شيء من التاريخ

وبهدوء الأحوال في السودان، اهتم المستعمِرون البريطانيون بهندسة نسيج المجتمع، فرفعوا قواعد «سراي الحاكم العام» (القصر الجمهوري حالياً). ولفرط زهو الحاكم العام الأول «اللورد كتنشر» بأمجاد الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، خطط شوارع الخرطوم على نسَق العلم البريطاني وهندس المباني الجديدة على الطراز الفيكتوري. وكان الميدانان الشرقي والغربي بمباني «كلية غردون» المشيدة عام 1902 (جامعة الخرطوم حالياً) مخصصين لممارسة اللعبة. ومن ثكنات الجيش وعبر «كلية غردون التذكارية»، عرفت كرة القدم طريقها إلى الأحياء السكنية في الخرطوم وبالتحديد ضاحية بري، المتاخِمة لثكنات الجيش الإنجليزي المسمى «البركس».

تأسس «نادي بري» عام 1918، ويعتبر «حسب الرسول عمر» (المسمى «حسبو الصغير») نجم هذا الفريق، صاحب الهدف الأغلى بتاريخ الكرة السودانية، فهو من سجل هدف المباراة التي أهدت السودان لقبها الأفريقي الأول والوحيد، بعد الفوز على المنتخب الغاني في المباراة النهائية لكأس الأمم الأفريقية التي جرت في السودان

1- على النحو الذي أرّخه رئيس وزراء بريطانيا الأشهر، «ونستون تشرشل»، في مؤلفه «حرب النهر» إذ رافق الجيش الغازي، بصفته مراسلاً حربياً.

عـام 1970.

بدايات القرن الفائت، شجّعت الروح الوطنية الأندية للتوسع في تنظيم الدورات الرياضية والتباري لدعم الأنشطة الأهلية، كالتعليم الذي كان حكراً على الطبقة الحاكمة وأشياعها، فأطلق السودانيون المبادرات لتشييد المدارس الأهلية، ليتمكن جميع أبناء الوطن من تعلم القراءة والكتابة. وتحمّلت الأندية الرياضية وحدها عبء تلك المبادرات، إذ لم تكن الأحزاب السياسية قد ظهرت بعد..

ومـن الخرطـوم عـبرت كـرة القـدم النهـر صـوب مدينـة «أمدرمـان»، ثـم «ود مـدني» بوسـط السـودان، كأول مدينـة تسـتقطب الكـرة خـارج الخرطـوم، ثـم إلى مدينـة «عطـبرة» الصناعيـة الملقّبـة بعاصمـة الحديـد والنـار، شـمال السـودان. وتقـول إحـدى الروايـات أن «عطـبرة» ركلـت الكـرة قبـل الخرطـوم بسـنوات، لأن الجيـش الإنجليـزي نـزل في سـاحتها أولاً وهـو في طريقـه للخرطـوم لمقاتلـة المهدويـين - ثـم رُكِلـت الكـرة شرقـاً جهـة بورتسـودان، ميناء السـودان الأول عـلى البحـر الأحمـر. ثـم سرت كـرة القـدم في المـدن المُختلفـة، بفضـل دينامية السـكة الحديـد التـي ربطـت البـلاد في الإتجاهـات الأربعـة، بعـد دخـول المسـتعِمر البريطـاني.

اسـتمرت «كـرة الـشراب» (المكونـة مـن جـوارب محشـوة ببقايـا وأسـمال أقمشـة باليـة)، كاللعبـة الشـعبية الأحـب لـدى السـودانيين حتـى 1910، حيـث أنشِـئت فـرق في الأحيـاء السـكنية للعاصمـة. منـذ ذلـك الوقـت مُزجـت الكـرة بالسياسـة. فقـد لمـس البريطانيـون قـوة وتأثـير كـرة القـدم فحظـروا الأنشـطة الرياضيـة في أعقـاب إنـدلاع ثـورة «اللـواء الأبيـض»[2] عـام 1924، واغتيـال سردار الجيـش المـصري وحاكـم السـودان السـير «لي سـتاك» بالقاهـرة في العـام ذاتـه. وشـمل قـرار الحظـر كافـة الأنشـطة الرياضيـة داخـل الأنديـة والأحيـاء السـكنية بـل وطـال حتـى التجمعـات بالأفـراح والأتـراح، قبـل أن تخفَّـف القيـود تدريجيـاً حتـى زالـت بعـد عامـين، فسُـمح عـام 1926 بتسـجيل الأنديـة الرياضيـة رسـمياً. ورغـم اتخـاذ القـرار الأخـير مـن دوافـع أمنيـة، تمهيـداً لمكافحـة انتشـار الأنشـطة السياسـية عـبر واجهـات رياضيـة، تدافـع السـودانيون لتسـجيل الأنديـة، وحمـل بعضهـا أسـماء عربيـة وأخـرى أسـماء إنجليزيـة. وأشـهر تلـك الأنديـة نـادي «سـتاك»، أول بطـل للـدوري المحـلي لكـرة القـدم بالخرطـوم عـام 1951 والـذي اختـار اسـم «التحريـر» عقـب الاسـتقلال.. وشـهد العـام 1927 ميـلاد «شـيخ الأنديـة الرياضيـة» بتأسـيس «نـادي المـوردة» بواسـطة ضبـاط سـودانيين درسـوا في الكليـة الحربيـة، وحملـت قمصـان الفريـق شـعار الكليـة نفسـه.

وبدخـول خريجـي «كليـة غـردون التذكاريـة» و«الكليـة الحربيـة السـودانية» إلى مجلـس إدارات الأنديـة الرياضيـة، جعلوهـا حواضـن للثـورة... وشـجعت تلـك الـروح الأنديـة للتوسـع في تنظيـم الـدورات الرياضيـة والتبـاري لدعـم الأنشـطة الأهليـة، كالتعليـم الـذي كان حكـراً عـلى الطبقـة الحاكمـة وأشـياعها، فأطلـق السـودانيون المبـادرات لتشـييد المـدارس الأهليـة، ليتمكـن جميـع أبنـاء الوطـن مـن تعلـم القـراءة والكتابـة. وتحملـت الأنديـة الرياضيـة وحدهـا عـبء تلـك المبـادرات، إذ لم تكـن الأحـزاب السياسـية قـد ظهـرت بعـد.. وارتـاب الإنجليـز مـن أي تـصرف صـدر عن السـودانيين.

ففـي عـام 1936 عـلى سـبيل المثـال، أعلنـت السـلطات البريطانيـة تكويـن إتحـاد كـرة القـدم بالسـودان، مـما مثّـل تحـولاً مذهـلاً. لكـن الخطـوة جـاءت لقطـع الطريـق أمـام تكويـن رابطـة نقابيـة وطنيـة لتنظيـم الـدورات التنافسـية، فقـد علمـت السـلطات البريطانيـة حينهـا أن نـادي «التـذكار» دعـا أنديـة مـدن العاصمـة الثـلاث (الخرطـوم، الخرطـوم

2- تركـزت أحـداث ثـورة 1924 في المـدن، بقيـادة الموظفـين والعـمال والجنـود، ودعـت للتخلـص مـن الاسـتعمار ولـ«وحـدة وادي النيـل»، وكانـت تنسـق مـع الحركـة التحرريـة المصريـة.

بحري، أمدرمان) إلى تكوين كونفيدرالية أو اتحاداً أهلياً لتنظيم المنافسات الرياضية في الخرطوم، وكان مقرراً أن تنطلق عام 1933.. وهكذا انتظر الاتحاد السوداني 19 عاماً ليلعب المنتخب (المعروف حينذاك بـ«الفريق الأهلي السوداني») مباراته الأولى أمام إثيوبيا عام 1955. وترأس اتحاد الكرة الدكتور عبد الحليم محمد، الذي شغل عضوية «مجلس السيادة السوداني» (أي رأس الدولة) في العام 1965. ويعتبر الاتحاد السوداني ثالث مؤسسي الاتحاد الأفريقي لكرة القدم بجانب مصر وإثيوبيا عام 1957.

انتفاضة الشعب السوداني ضد نظام البشير في ملصق لمباراة كرة القدم.

قطبا الكرة السودانية

ولد «نادي المريخ» عام 1927، و«نادي الهلال» عام 1930، وهما الثنائي المستأثر بالاهتمام الأعظم، على غرار أندية ريال مدريد وبرشلونة في إسبانيا، والأهلي والزمالك في مصر.. يقتسم الفريقان ولاء وعشق جماهير الكرة، ويقتسمان كذلك حي «العرضة» العريق بمدينة أمدرمان، إذ يقع استاد «الهلال» بالعرضة شمال ويعرف بـ«الجوهرة الزرقاء»، فيما يقع استاد «المريخ» بالعرضة جنوب ويعرف بالـ«رِد كاسل» (القلعة الحمراء). ويتمتع الغريمان اللدودان بموارد مالية هائلة، وجمهور عريض لا ينفك عن متابعة ناديه.

وينتظم المشجعون فرادى أو عبر الروابط المنتشرة داخل وخارج البلاد، وتطورت أخيراً بتأسيس ألتراس الهلال

السـوداني «الأسـود الزرقـاء» (Ultras Blue lions)، وألـتراس «أولمبـوس المريـخ» (Ultras Olympus Mons).

تقف مجموعات الألتراس على مسافة واحدة من الجميع، وتنأى بنفسها عن الصراعات الإثنية والجهوية، بل كانت الأندية الرياضية العتبات التي تزول عندها كل النعرات العنصرية والفوارق الطبقية.

ويتمتـع ألـتراس الهـلال بتأثـير قـوي عـلى المدرجـات، وقـد أنتـج ثقافـة تشـجيعية جديـدة، تجابـه الظلـم أينـما ظهـر. وشـهد «فلـوران»، المديـر الفنـي لنـادي «الهـلال»، وهـو مـن الكونغـو، «أنهـم يقفـون معنـا في أصعـب اللحظـات»، وهـذا مـا ذهـب إليـه اللاعـب الملاوي المحـترف بصفـوف «الهـلال»، «جيرالـد فـيري».. ويشـتهر المشـجعون السـودانيون بعـدم تبنـي العنـف، إلا أن التوتـر يسـود أحيانـاً بـين أنصـار «الهـلال» و«المريـخ» وينقلـب الى شـغب وعنـف ورمـي اللاعبـين بالحجـارة والقنـاني الفارغـة.

ويفتخـر أنصـار «الهـلال» بأنهـم نـادي الحركـة الوطنيـة السـودانية، إنمـا المؤكـد أن خريجـي الكليـات الأوائـل، كانـوا الآبـاء المؤسسـين لـكل الأنديـة الرياضيـة بالسـودان. ويعتـبر «الهـلال» أول نـادٍ حمـل اسـم الهـلال في المنطقـة العربيـة. كانـت إدارات الأنديـة الرياضيـة حينهـا خليطـاً مـن ضبـاط الجيـش والشرطـة وكبـار موظفـي الخدمـة المدنيـة ومـدراء البنـوك ورجـال السـلك الدبلومـاسي والمثقفـين وتجـار الطبقـة الوسـطى، حيـث تـولى مثـلاً رئاسـة «المريـخ» محافـظ بنـك السـودان المركـزي «مهـدي الفـكي» في الثمانينيـات. كـما يعتـبر الضابـط الإداري «الطيـب عبـد اللـه» أشـهر رؤسـاء نـادي الهـلال.

وماذا الآن؟

خـلال العقديـن الماضيـين، اسـتحوذ رجـال الأعـمال مـن ذوي الـثراء العريـض وممن تطالهم شـبهات بالفسـاد، عـلى القيادة في إدارات الأنديـة الرياضيـة، وخاصّـة الأنديـة الجماهيريـة، مـع ارتفـاع تكاليـف تسـييرها، وربمـا اقتـداءً بالأنديـة الأوروبية الكـبرى.. فقـد تعاقـب عـلى إدارة «الهـلال» كلٌ مـن «صـلاح إدريـس» و«أشرف سـيد أحمـد» (الملقـب بالكاردينـال)، وأخـيراً «هشـام السـوباط» المشـتبه بتورطـه في قضايـا فسـاد واسـتيراد بواخـر نفـط غـير مطابِقـة للمواصفـات.

أمـا «المريـخ» فقـاده رجـال أعـمال حامـت حولهـم شـبهات فسـاد مـالي، أمثـال «جـمال الـوالي» الـذي أمـرت «لجنـة تفكيـك نظـام الثلاثـين مـن يونيـو» (لجنـة تصفيـة حكوميـة بعـد ثـورة ديسـمبر 2018) بمصـادرة أموالـه وعقاراتـه عـام 2019. إلا أن المحكمـة العليـا نقضـت قـرار اللجنـة بعـد الإنقـلاب العسـكري في 25 تشريـن الأول/ أكتوبـر 2021. أمـا الرئيـس الآخـر لنـادي المريـخ «آدم عبـد اللـه» (سـوداكال)، فقبـع في السـجن لعـدة سـنوات اعتبـاراً مـن عـام 2005 عـلى ذمـة قضايـا احتيـال وغسـل أمـوال.

وعـن طريـق تلـك الطبقـة الفاسِـدة، سـعى «حـزب المؤتمـر الوطنـي» المحلـول برئاسـة البشـير للتسـلل إلى القطـاع الريـاضي.. لم تنحـصر محـاولات وضـع اليـد بقطبـي الكـرة (الهـلال والمريـخ) وحدهـما، بـل شـملت مدنـاً مُختلِفـة، بتقديـم «المحاسـيب» ودعمهـم بسـخاء لاكتسـاح الانتخابـات. وهـو مـا فعلـه «أحمـد هـارون»، والي شـمال كردفـان، مـع «نـادي الهـلال التبلـدي».

ويذكـر أن هـارون مُتّهـم مـن محكمـة الجنايـات الدوليـة في لاهـاي بارتـكاب جرائـم حـرب وجرائـم ضـد الإنسـانية في

دارفور عام 2003. وقد فرّ مع قادة الحركة الإسلامية السودانية من السجن بعد إندلاع حرب 15 نيسان/ أبريل 2023 بين الجيش السوداني وقوات الدعم السريع، وبعد قضائه قرابة الأربعة أعوام خلف القضبان.

خلال العقدين الماضيين، استحوذ رجال الأعمال من ذوي الثراء العريض وممن تطالهم شبهات بالفساد، على القيادة في إدارات الأندية الرياضية، وخاصّة الأندية الجماهيرية، مع ارتفاع تكاليف تسييرها، وربما اقتداءً بالأندية الأوروبية الكبرى..

كما استحوذ جهاز الأمن والمخابرات على «نادي الخرطوم 3» الذي صار اسمه «نادي الخرطوم الوطني»، لكنه استعاد إسمه القديم بعد الإطاحة بالبشير.

غير أنّ محاولات تجيير القطاع الرياضي ضاعت سدى، وانتظم طيف واسع من الرياضيين السودانيين، خاصة لاعبي ومشاهير كرة القدم، في مقاومة شرسة للنظام. كما أظهروا تعاطفاً كبيراً مع الشهداء الذين ارتقوا خلال الاحتجاجات الشعبية التي قابلتها السلطة بقمع وحشي. وشكّلوا حضوراً لافتاً بميدان الاعتصام أمام القيادة العامة للجيش في الخرطوم عام 2019.

وازدادت نيران الثورة اشتعالاً بعد وقوع الإنقلاب العسكري في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 2021، حيث لا يزال جميع السودانيين يذكرون تلك التحية الشهيرة بالجثو على الركبة ورفع أيديهم لقراءة الفاتحة على أرواح الضحايا الأبرياء - الذين سقطوا خلال الاحتجاجات الشعبية المناهضة للإنقلاب - عند التقاط الصور التذكارية قبيل انطلاق مباراة السودان ومصر في كأس الأمم الأفريقية بالكاميرون في كانون الثاني/ يناير عام 2022.

وكان تهافت الساسة والعسكر والنهابين في السودان، يفرز نوعاً من «خطاب المظلومية» لدى قطاع واسع من الرياضيين الذين شعروا أن «أهل الدثور ذهبوا بالأجور»، مسلطين أنظارهم الحادة شطر أحلام الناس البسيطة طامعين بسرقتها. وما زاد الحنق أن التحالف المذكور كان «مرآة عاكسة لأمراض البلاد: ديكتاتورية، تفاوت طبقي، نزعات جهوية، فساد»[3]، وغيرها.

ولعلنا نذكر الهتاف في وجه مشجعي نادي المريخ «سدنة، سدنة، سدنة»، بعد الإطاحة بنظام نميري في نيسان/ أبريل 1985، للإشارة إلى انحياز النميري ورجاله لنادي المريخ. وبغض النظر عن صحة الاتهام، فالمؤكد أن نميري حرص طوال سنوات حكمه التي قاربت 16 عاماً على إظهار اهتمامه وولعه الشديد بكرة القدم.

ثورة ديسمبر وسطوعُ رياضي

سطع ألتراس الهلال المعروف بـ«البلو ليونز» في 23 كانون الأول/ ديسمبر 2018 ، في وقت اشتعال الثورة ضد نظام البشير. وفي تلك اللحظة التاريخية، استغل ألتراس «الأسود الزرقاء» مباراة في البطولة الأفريقية مع نادي «الأفريقي» التونسي لإعلان ثورة الرياضيين.

وفي لحظة واحدة دوت حناجر الآلاف داخل استاد الهلال في أمدرمان بالهتاف الأشهر «الشعب يريد إسقاط

3- بتعبير محمد رامي عبد المولى: «كرة القدم في تونس: السلطة والجمهور يتنازعان الملعب»/ «السفير العربي».

النظـام»، ومـا أن أطلـق الحكـم صافـرة النهايـة حتـى هـزت الجماهـير أرجـاء الملعـب ومـا جـاوره مـن أحيـاء مدينـة أمدرمـان بهتافـات حماسـية، ثـم تدافعـوا في مظاهـرات ضخمـة في أوج اسـتشراس نظـام البشـير، في مشـهد لا ينـسى.

ولم يكـن ألـتراس نـادي «المريـخ» أقـل ثوريـة، فقـد حولـوا ملعـب سـتاد المريـخ إلى بـركان يغـلي كالمرجـل أثنـاء مبـاراة فريقهـم ضـد «نـادي مولوديـة وهـران» الجزائـري، في 16 شـباط/ فبرايـر 2019. فشـقت الحناجـر سـكون الليـل بهتـاف الثـورة والتغيـير، واهتـزت أمدرمـان مـن جديـد. ويـوم الأحـد 3 آذار/مـارس 2019، ظهـر ألـتراس الـ«بلـو ليونـز» في مبـاراة الهـلال السـوداني أمـام زيسـكو الزامبـي في بطولـة الكونفدراليـة الأفريقيـة، مرتديـاً «تي شـيرت» أسـود حـداداً عـلى شـهداء الوطن.

ازدادت نيران الثورة اشتعالاً بعد وقوع الإنقلاب العسكري في العام 2021، حيث لا يزال جميع السودانيين يذكرون تلك التحية الشهيرة بالجثو على الركبة ورفع أيديهم لقراءة الفاتحة على أرواح الضحايا الذين سقطوا خلال الاحتجاجات الشعبية المناهضة للإنقلاب، وكان ذلك عند التقاط الصور التذكارية قبيل انطلاق مباراة السودان ومصر في كأس الأمم الأفريقية بالكاميرون في كانون الثاني/ يناير عام 2022.

كـما سـطع نجـم المنتخـب السـوداني ونـادي المريـخ «سـيف الديـن تـيري»، الـذي شـارك في مواكـب عديـدة واصطـدم بالقمـع الأمنـي الوحـشي. وعقـب إسـقاط نظـام البشـير وجهـت لتـيري تهـما بحـرق مركـز للشرطـة وتحريـر متهمـين وحـرق سـيارات، وألقـي القبـض عليـه في حزيران/يونيـو 2019 مـما أقلـق الاتحـاد الـدولي لكـرة القـدم (فيفـا) الـذي اسـتفسر عـن وضعـه القانـوني والصحـي داخـل السـجن. وفي نهايـة تموز/يوليـو 2019، أطلـق سراحـه بكفالـة ماليـة، وحتـى الآن لم يفصـل القضـاء بقضيتـه، إلا أنـه يواصـل نشـاطه الريـاضي، كلاعـب محـترف بالـدوري المـصري مـع «نـادي فاركـو».

وبعـد ثلاثـين عامـاً مـن نظـام البشـير، جسـدت تلـك الحـوادث إشـارة بـأن حاجـز الخـوف انكـسر، كـما ألهمـت جسـارة وبسـالة الألـتراس والمشـجعين ضـد شراسـة رجـال الأمـن والشرطـة، حـماس المتظاهريـن في الشـوارع.

جائحة كورونا ومخدر الشيطان

إبـان انتشـار جائحـة كورونـا، توقـف النشـاط الريـاضي بالسـودان تمامـاً، وصـوّب ألـتراس الهـلال السـوداني اهتمامـه لمجـالات متنوعـة، فرفعـت المجموعـة رسـائل مـن أمـام وزارة الصحـة وفي حـوش الخليفـة.. الأولى موجهـة لأطبـاء الوطـن («جيشـنا الأبيـض .. نعلـم مـا تمـرون بـه .. نحـن معكـم وحتـماً سـننتصر»)، والثانيـة لإيطاليـا، باعتبـار الكارثـة التـي تسـبب بهـا كورونـا لبـلاد مهـد الألـتراس في العـالم، وتقـول: «مـن السـودان إلى إيطاليـا مهـد الألـتراس.. ندعـو لأجلكـم».

واسـتمراراً للحمـلات المجتمعيـة، نُظِّمـت بطولـة «بلـو ليونـز» لكـرة القـدم الخماسـية، تحـت اسـم «دوري سـودان بـلا إدمـان»، في 2022، حيـث شـهدت تلـك الفـترة تفشـياً لافتـاً للمخـدرات بـين فئـة الشـباب، وخاصّـة «الآيـس كريسـتال» الفتـاك الشـهير بـ«مخـدر الشـيطان». كـما أقامـت المجموعـة فعاليـة ترفيهيـة لأطفـال إسـتراحة مـرضى السرطـان («كلنـا قيـم - جوانـا أمـل») داخـل أسـوار إسـتاد الهـلال بمشـاركة لاعـب الهـلال أبـو عاقلـة عبـد اللـه.. والسـودان يعـد مـن البلـدان التـي تسـجل معـدلات قياسـية للإصابـة بمـرض السرطـان.

الألتراس ولجان الأحياء

ناصر بابكر، الصحافي السوداني المختص بالرياضة، يقول إن الألتراس في السودان ملتزمون بمبادئ الألتراس العالمية، فلا يظهرون في وسائل الإعلام. ولكن صلابة تنظيمهم وتماسكهم وأهازيجهم وهتافاتهم أسهمت كلها في تقوية «لجان الأحياء» و«لجان المقاومة» بصورة لافتة، حيث انصهروا في تلك اللجان الثورية، دون تمييز لأنفسهم.

> **في لحظة واحدة دوت حناجر الآلاف داخل استاد «الهلال» في أمدرمان بالهتاف الأشهر «الشعب يريد إسقاط النظام». وما أن أطلق الحكم صافرة النهاية حتى هزت الجماهير أرجاء الملعب وما جاوره من أحياء المدينة بهتافات حماسية، ثم تدافعوا في مظاهرات ضخمة في أوج استشراس نظام البشير، في مشهد لا ينسى.**

وتقف مجموعات الألتراس على مسافة واحدة من الجميع، وتنأى بنفسها عن الصراعات الإثنية والجهوية، وعلى العكس كانت الأندية الرياضية العتبات التي تزول عندها كل النعرات العنصرية والفوارق الطبقية، كما قال الشاعر السوداني الدكتور عمر محمود خالد في أبياته:

«نحن في المريخ إخوة

نعشق النجمة ونهوى

واختلاف الرأي فينا

يجعل المريخ أقوى»

أنشأ الألتراس سكان العاصمة التي قدِموا إليها من مختلف أنحاء البلاد، وتضاعفت أعدادهم بمتوالية هندسية، لعوامل جيوسياسية واقتصادية ومناخية. فقد قفزت أرقام المقيمين في الخرطوم من نصف مليون نسمة تقريباً منتصف الثمانينيات إلى عشرة ملايين نسمة تقريباً في الأعوام الأخيرة. في المقابل، تنتشر روابط مشجعي الأندية الرياضية داخل وخارج البلاد.

> **استمراراً للحملات المجتمعية، نُظِّمت بطولة «بلو ليونز» لكرة القدم الخماسية، تحت إسم «دوري سودان بلا إدمان»، في 2022، حيث شهدت تلك الفترة تفشياً لافتاً للمخدرات بين فئة الشباب، وخاصّة «الآيس كريستال» الفتاك الشهير بـ«مخدر الشيطان».**

ترتبط مجموعات الألتراس بتشجيع الأندية ارتباطاً شديد القوة، ويتمايزون عن الروابط الجماهيرية التشجيعية الأخرى بالاستقلالية الكاملة عن مجالس الإدارات، بل ولهذا السبب، شكّل الألتراس الهاجس الأكبر للمجالس التي تسعى للتحكم بالأندية، وذلك أيضاً لشجاعتهم في التعبير عن رأيهم حول كل ما يدور في أنديتهم بقوة وبطرق متنوعة.

منعت بعض البلدان المباريات المفتوحة أو قننت بشكل أمني دخول الجمهور إلى الملاعب لتجفيف انطلاق الهتافات والأهازيج. وهذا حدث كذلك في السودان، إبان انطلاق الثورة ضد نظام البشير، فأقيم الدوري بدون جمهور.. كما تعرضت مجموعات الألتراس لمضايقات بدعم خفي من مجالس إدارات الأندية التي تربطها مصالح

مـع النظـام الحاكِـم. ومنـع رئيـس نـادي الهـلال «الكاردينـال» ألـتراس النـادي مـن دخـول اسـتاد الهـلال في تشريـن الثاني/ نوفمـبر2019، ليخـوض ألـتراس الهـلال معركـة شرسـة ضـده، وقذفـوه ببيـان ثـوري محمـوم تعهـدوا خلالـه بأنهـم لـن يدخـروا جهـداً «لدحـر الدُخـلاء والأرزقيـة (المرتزقـين) والفاسِـدين مـن جسـدِ الهـلال الطاهـر»، وأكـدوا أن «الفـوز هـو أن ننعتِـق مـن جيـوب الرأسـمالية الفاسِـدة التـي تدفـع شـيئاً يسـيراً مـن المـال الفاسـد لتحصـد الكثـير مـن البروباغنـدا والقليـل مـن الانتصـارات، ولا نـولي هيبـة الكيـان أدنى أهميـة، هيبـة ضاعـت تمامـاً في هـذا العهـد المظلـم، وقيـم وموروثـات وأفـكار سـامية تأسـس لأجلهـا «الهـلال» أقسـمنا أن نسـتخدم كل المُمكـن للمحافظـة عليهـا وبأرواحنـا إن تطلّـب الأمـر».

أمـا ألـتراس نـادي المريـخ، فوقـف سـداً منيعـاً أمـام تدخـل قائـد «مليشـيا الدعـم السريـع» محمـد حمـدان (حميـدتي) لصيانـة اسـتاد المريـخ، وذكـروا أن عهدهـم مـع الشـهداء «قـصي» و«عبـد العظيـم» و«محمـد مجـذوب»، الذيـن قتلـوا بالرصـاص إبـان ثـورة ديسـمبر 2018 بـأن يمنعـوا ذلـك، وعلقـوا لافتـة عـلى مدخـل النـادي في 27 آذار/مـارس 2022 تقـول: «لا.. لتلميـع القتلـة عـلى حسـاب الكيـان».

والحـال، يبـدو جليـاً أن أحـلام تحالـف السـلطة والمـال والسـلاح اسـتعادة التحكـم بالوسـط الريـاضي تتعـثر بفضـل أجيـال المشـجعين الأكـثر صداميـة في تاريـخ الكـرة السـودانية، وتركـز الأهازيـج والهتافـات التـي يرددونهـا بحـماس شـديد، مطالبـين بالعدالـة والقصـاص لشـهداء المجـازر الوحشـية مـن المدنيـين العـزل والمتظاهريـن السـلميين.. وأشـهرها: «الـدم قصاصـه الـدم، مـا بنقبـل الديـة»..!

كرة القدم النسائية...

في منطقتنا

من مباراة منتخبي فلسطين والسعودية لكرة القدم النسائية.

الكرة في ملعب النساء... حلم بعضهن وكابوس المجتمعات العربية

عائشة بلحاج

صحافية وباحثة في حقوق الإنسان من المغرب

تُجمع الآراء وتصريحات اللاعبات والمسؤولات على ضرورة إعادة بناء الأندية، حتى يتماسك مستوى المنتخبات، وعلى الحرص على وجود بطولة احترافية لها كامل الشروط التي تتمتع بها البطولة الرجالية... وضرورة وجود مدارس للكرة للفتيات والناشئات، وضبط الحد الأدنى لأجور اللاعبات، وتوفير ضمان اجتماعي، وتأمين يحقق استقراراً مادياً ونفسياً لهن.

بما أن النّساء وَجدن مكانهن في كامل ميادين الحياة بشق الأنفس، فنحبس أنفاسنا في انتظار دخولهنّ ميادين شاقّة من حيث الجهد الفردي، وأشقّ من ناحية مرونة المحيط الاجتماعي تجاهها، مثل الرّياضة الاحترافية. كانت الأسماء القليلة التي برزت في الرياضات الفردية، مثل ألعاب القوى، عبارة عن معجزات صغيرة لنساء نَمَونَ خارج القوالب. بينما كان الأمر أصعب للرّياضات الجماعية التي تتطلّب منظومات ومؤسسات كاملة. مع ذلك، رأينا مبكّراً إلى حد نسبي، فرقاً عربية ناجحة، في كرتي اليد والسلة بشكل خاص. لكن كرة القدم كانت عالماً ذكورياً محضاً. فحتّى على المدرّجات، كان وجود المرأة من قبيل الظواهر الناشزة. والأمر يختلف بالطبع بين مجتمع وآخر. فالمرأة في شمال أفريقيا مثلاً سبقت نظيرتها في الخليج العربي بعقود في هذا المجال.

المنتخب البحريني للسيدات تحت *17* عاماً.

ومع صعود نجم لاعبات كرة القدم في العالم، خاصة في الدورة الأخيرة من كأس العالم للسيدات عام 2019، ظهر اهتمام متزايد بمتعة مختلفة تقدّمها كرة القدم للسيّدات. فتفاعُلهن مع بعضهن، ومع التدخّلات - السليم والعنيف منها - أو المهارات، كل ذلك يختلف في إيقاعه عن زملائهن الرجال. وكان لتأهل منتخب المغرب لكرة القدم للسيدات إلى نهائيات كأس العالم في تموز/ يوليو 2023، وتتقاسم مبارياتها أستراليا ونيوزيلاندا، أثرٌ كبير على المجتمع، ونبشٌ في حلم بعيد لفتيات كثيرات. وإذا كانت المنطقة العربية قد تطبّعت مؤخراً مع الحضور النسوي في المدرّجات، فإن مباريات منتخباتها النّسوية كانت تجلب جمهوراً ضئيلاً، قد لا يتجاوز أهل اللاعبات وأفراداً متفرقين. لكن تنظيم المغرب لكأس أفريقيا لكرة القدم النّسوية، عرف حضوراً هائلاً للجمهور في مباريات البطولة، بعد اكتشافه لعالم كامل كان مجهولاً له. مما يبشر بأن المباريات المستقبلية للفرق النسوية وللمنتخبات، ستعرف إقبالاً مهمّاً للجمهور الرجالي، الذي يبقى الجمهور الأساسي لكرة القدم لحد الآن.

ألف بنت بألف حلم

أطلقت «وزارة الشّباب والرياضة» المصرية عام 2017 برنامج «ألف بنت بألف حلم»، لتعريف فتيات محافظات

الصعيد بكرة القدم. ولعله شعار ملائِم لرياضة تمثّل حلماً صعباً. لأننا ما زلنا في كثير من دول المنطقة العربية نعدُّ أرقام لاعبات كرة القدم بالمئات أو الآلاف، بين أعداد بالكاد تبلغ المئة في بعض دول الخليج، إلى الآلاف في دول أخرى كالأردن ولبنان، إلى حالة فريدة في مصر التي يقدر عدد اللاعبات فيها بعشرات الآلاف. وبذلك تتجلى خارطة الدول العربية لكرة القدم النسوية، بين التي تعرف حضوراً قوياً، وتلك التي بالكاد تطل على الكرة من شقّ ضئيل في الجدار. وتتربع دول شمال أفريقيا على رأس القائمة، خصوصاً المغرب ومصر والجزائر وتونس. بينما يأتي الأردن على رأس القائمة في بلدان المشرق العربي، ثم فلسطين ولبنان وبعض دول الخليج مثل السعودية وقطر والإمارات، التي دخلت مؤخراً إلى اللعبة، مدعومة بإمكانيات مادية مهمّة.

وساهم قرار الـ«فيفا» عام 2014 بالسّماح للاعبات بارتداء الحجاب خلال المباريات الرسمية، في دخول عدد أكبر من الشّابات المجال، وفي زيادة حركة انتشار اللعبة على الصعيد النسائي العربي والإسلامي. وحسب عدد من روايات اللاعبات المعروفات عن بداياتهن مع اللعبة، نكتشف أن الفتيات ذوات المحيط وإنْ الذكوري، ولكن المتقبل للفكرة، غالباً هن اللواتي يلجأن إلى ممارسة كرة القدم، وكثير من اللاعبات تعلمن اللعب مع أشقائهن الذكور. وهذا سهّل عليهن نسبياً دخول فرق الكرة في المدرسة، في غياب بدائل أخرى، لأن فرق الكرة للفتيات تكاد تنعدم في مراحل المراهقة.

كرة القدم للسيدات في شمال أفريقيا

تقول بعض الشهادات في المغرب[1]، إن كرة القدم النسوية دخلت البلاد منذ بداية الثمانينيات. فكانت الفتيات الهاويات لكرة القدم في مدينة الدار البيضاء يلعبن في صفوف فرق الأحياء، التي كانت تتأسّس حينها بمبادرات فردية أو جماعية. «كان لكل منطقة فريق نسائي خاص بها، وكنا ننافس بعضنا بعضاً في إطار دوريات محلية»، تحكي اللاعبة السابقة نادية مقدي، عميدة المنتخب المغربي لكرة القدم للسيدات سابقاً. و«حمل عام 1997 بشرى سارة للاعبات كرة القدم، حيث أصبح بإمكانهن الانضمام للمنتخب المغربي لكرة القدم والمنافسة على المستوى العالمي»[2].

ساهم قرار الـ«فيفا» عام 2014 بالسّماح للاعبات بارتداء الحجاب خلال المباريات الرسمية، في دخول عدد أكبر من الشّابات المجال، وفي زيادة حركة انتشار اللعبة على الصعيد النسائي العربي والإسلامي.

كانت البطلة نوال المتوكّل، التي تولت عدداً من المناصب الرّياضية، صاحبة فكرة تأسيس منتخب مغربي لكرة القدم للسيدات. في السّنة الموالية، وقبل نهائيات كأس أمم أفريقيا لكرة القدم التي أُقيمت في نيجيريا، انطلقت لأوّل مرة البطولة الوطنية النسائية عبر «الروابط»، وهذا يعني تقسيم جهات البلاد تحت راية «عصبة» أو رابطة واحدة، مثل «عصبة الشمال»[3]، بدل الاكتفاء باللعب في الدوريات المحلية في كل مدينة. وهذه «العُصَب» استمرّت لتسع سنوات، حتى حدود موسم 2007/2008. في ذلك الموسم انطلقت البطولة الوطنية النّسوية بنظام

1- عائشة بلحاج، «كرة القدم... للنساء أيضا»، موقع «السفير العربي»، 2023/04/25.

2- سليمان بكباش، «المغرب: حان موعد إعطاء كرة القدم النسوية حقها من الاهتمام»، موقع «تاجة سبور»، 2021/03/06.

3- المرجع السابق.

الشطرين، الشطر الشمالي والشطر الجنوبي للبلاد، والذي أُلغي عام 2019، وتمّ تبني بطولة وطنية واحدة.

في البداية، لم تكن هناك ملاعب مجهزة ومستودعات، بل ملاعب ترابية فقط. ولم تحصل اللاعبات على أي دعم، إذ لم تكن تربطهن بالفرق عقود. تقول نادية مقدي: «سنة 1998 كنا نحصل على 100 درهم (10 يورو) كتعويض من الفرق التي نلعب لصالحها. ومع تحسن الوضع قليلاً، كانت أفضل اللاعبات تجني دراهم معدودة شهرياً». بعد سنوات، بلغ الأجر المتوسط 500 درهم (حوالي 50 يورو) بالنسبة إلى لاعبات الدرجة الأولى. وتحكي نادية مقدي التي تأهلت لكأس أفريقيا للأمم مرتين على التوالي أواخر التسعينيات الفائتة، أنها حصلت رفقة زميلاتها على منحة قدرها 800 درهم (حوالي 80 يورو) نظير تأهلهن للنهائيات. مع العلم أن لاعبي منتخب الذكور يحصلون على منح بعشرات ومئات الآلاف من الدراهم. فيما يبلغ متوسط أجور اللاعبين في البطولة المغربية 5000 درهم، أي عشرة أضعاف أجر اللاعبات. وقد حصل كل لاعب بعد تأهل المنتخب إلى نصف نهاية كأس العالم، على مليون وأربع مئة ألف دولار.

لاعبات مغربيات.

وتحقق للمنتخب المغربي أقوى إنجاز عربي وهو التأهل إلى نهائيات كأس العالم 2023، بعد وصوله إلى نصف نهائي كأس أفريقيا للسيدات. فيما اقتصرت أهم إنجازاته سابقاً على وصوله إلى نهائي كأس العرب لكرة القدم للسيدات عام 2006 التي خسرها لفائدة الجزائر. وحصدَ المنتخب المدرسي النّسوي لكرة القدم لقب بطولة أفريقيا المدرسية في العام 2022. وهذه البطولة القارّية تعتبر الأولى من نوعها، وكان المغرب الدولة العربية الوحيدة المشاركة فيها.

بدورها، عرفت مصر كرة القدم النسائية في نهاية التسعينيات الفائتة. إذ انطلقت منافسات كرة القدم النسائية عام 1997، وكانت سابقة غير مألوفة على المجتمع حينها، ثم بدأت أول بطولة في العام التالي. ووصل عدد ممارِسات كرة القدم عام 2013 إلى ما يقارب مئة ألف فتاة، في أكاديميات ودوريات الهواة، بحسب بعض المصادر في اتحاد الكرة. وأطلق «النادي الأهلي» العام 2022 أول أكاديمية لكرة القدم النسائية في تاريخه، مؤذناً ببداية

جديدة للعبة، بدخول أندية جماهيرية عريقة إلى دوري السيدات في السنوات المقبلة، على غرار الدوريات العالمية والعربية. مع العلم أن نادي دجلة هو الأقوى لحد الآن في منافسات الدوري المصري لكرة القدم النسوية.

خرج منتخب مصر الأول من نصف نهائي كأس العرب للسيدات، التي نظمتها مصر في آب/ أغسطس من عام 2021 بعد خسارته بخماسية أمام المنتخب الأردني، على الرغم من أن لعبه نهائي كأس العرب هو أفضل إنجاز تحقّق له في تاريخ البطولة، علماً أن مصر هي الدولة المنظِّمة للدورتين اليتيمتين لهذه البطولة. ثم تبعه خروج آخر من التصفيات المؤهِلة لبطولة كأس أمم أفريقيا، بهزيمه ثقيلة أمام تونس بستة أهداف ذهاباً بالقاهرة، وبهدف في الإياب في تونس.

> **كانت الأسماء القليلة التي برزت في الرياضات الفردية، مثل ألعاب القوى، عبارة عن معجزات صغيرة لنساء نَمَونَ خارج القوالب. بينما كان الأمر أصعب للرّياضات الجماعية التي تتطلّب منظومات ومؤسسات كاملة.**

وفي الفترة نفسها، واكبت الجزائر كلاً من المغرب ومصر في الانفتاح على كرة القدم النسوية. فعرفت هي أيضاً تأسيس دوري لكرة القدم للسيدات عام 1998، والذي عُدّل بنظام جديد عام 2013. وفاز المنتخب الجزائري للسيدات بلقب كأس العرب للسيدات في دورتها الأولى عام 2006. وعلى الصّعيد القاري، ففي رصيده خمس مشارَكات في كأس أفريقيا، لكنه لم يتجاوز فيها الدور الأول.

ونشأ دوري كرة القدم للسيدات في تونس عام 2004، تحت مسمّى الرابطة التونسية لكرة القدم. والملفت وجود بطولة أخرى هي كأس تونس للسيدات، على غرار الفرق الرجالية، لكن مباراة السوبر التي يخوضها حامل لقب الدوري والفريق المتوج بالكأس، عرفت ثلاث دورات فقط قبل أن تُلغى لأسباب لم تُعلن. على صعيد الفريق الوطني، حلت تونس ثانياً في كأس العرب في الدورة الأولى، وثالثاً في الدورة الثانية. فيما عرفت السّودان أول دوري نسائي سوداني عام 2019. لكن فريقها الوطني لم يحقق نتائج إيجابية لحد الآن.

كرة القدم للسيدات في دول المشرق والخليج

في أهم إنجاز لكرة القدم النسوية في الأردن، فاز منتخبها بكأس العرب لكرة القدم للسيدات في دورتها الثانية عام 2021. وتُدين اللعبة لتنظيم الأردن لكأس العالم للسيّدات تحت سن 17 عام 2020، ولانتعاش الاهتمام الشعبي بها، ولشعبية كرة القدم النّسوية في الأردن بين الفتيات اللواتي يُقْبلن الآن بشكل أكبر على ممارسة اللعبة.

> **في البداية، لم تكن هناك ملاعب مجهزة ومستودعات، بل ملاعب ترابية فقط. ولم تحصل اللاعبات على أي دعم، إذ لم تكن تربطهن بالفرق عقود: «سنة 1998 كنا نحصل على 100 درهم (10 يورو) كتعويض من الفرق التي نلعب لصالحها».. كما تعاني كرة القدم النسوية في المنطقة العربية من ظاهرة أخرى وهي التنمر على اللاعبات وأدائهن في المباريات.**

بدأت النوادي الرياضية عام 2002 بتأسيس فرق نسوية لكرة القدم. فيما أنشئ منتخب كرة القدم النسوية في الأردن عام 2005. لكن عدد لاعبات كرة القدم اليوم لم يبلغ بعد ألف لاعبة. ولتحفيز المشاركة الرياضية

لليافعات، نظم اتحاد كرة القدم الأردني دوريات للفتيات في المدارس الحكومية. وتقول رئيسة اللجنة النسوية في اتحاد كرة القدم الأردني، رنا الحسيني: «خلال فترة قصيرة كسرنا الحواجز الاجتماعية التي طالما اعتبرت اللعبة ذكورية». و «لضمان تعزيز مشاركة الفتيات في اللعبة، واستمرارهن بعد تخرجهن من الجامعة، خُصصت مكافآت شهرية للاعبات. لكنها لا تغطي سوى مصاريف المواصلات ومصاريفهن الشخصية». وحقق المنتخب النسوي الفلسطيني لكرة القدم نتائج جيدة في كأس العرب، هو الذي تأسس عام 2004. فيما تواجه البطولة صعوبات في التنقل بين فرق الضفة وغزة، وسبق لفريق الضفة أن مثّل فلسطين، باعتباره منتخبها الوطني، في كأس العرب.

في السعودية، رفعت السّلطات الحظر على دخول النساء إلى الملاعب، مع السماح لهن بحضور فعاليات رياضية في ثلاثة ملاعب، اعتباراً من 2018. وخصصت أقسام للمشجعات وللعائلات التي تضم نساء وأقربائهن الرجال، تفصلهم حواجز زجاجية عن بقية مقاعد الملعب المخصصة للمشجعين الذكور. فيما أعلن مسؤولون سعوديون عن إطلاق أول دوري كرة قدم للسيدات في العام نفسه. يوجد في السعودية اليوم أكثر من 15 نادياً لكرة القدم النسائية، مع حضور سيدتين ضمن طاقم الاتحاد السعودي لكرة القدم[4].

المنتخب الأردني النسوي في مباراته مع المنتخب الأزبكي.

أطلقت قطر أول بطولة لكرة القدم داخل الصالات عام 2009. بعد عامٍ من ذلك، شُكِّل الفريق الوطني القطري لكرة القدم النسوية، وشارك في أول بطولة دولية له في بطولة كأس العرب في البحرين، التي خسرها بـ17 - صفر. وبعد عامين، أُطلق أول دوري نسائي لكرة القدم في قطر، من تنظيم «لجنة رياضة المرأة القطرية»، بالتعاون مع الاتحاد القطري للعبة عام 2011. وتستمر البطولة لمدة شهر، بنظام دوري بدور واحد. لكن بعد دراسة تفاصيل البطولة، نُدرك أن الأمر يتعلق بـ«كرة القدم المصغرة» التي تُلعب بين فريقين يتكون كل منهما من خمس لاعبات، وتُلعب معظم الأحيان داخل الصالة، وتختلف عن كرة القدم العادية التي تتطلب بنية مؤسساتية

4- عائشة جعفري، «فيفا يشيد بانطلاق أول بطولة كرة قدم نسائية في السعودية»، صحيفة «الشرق الأوسط»، 2019/10/05.

وبيئة اجتماعية حاضنة. في لبنان، بدأ الدوري اللبناني لكرة القدم للسيدات عام 2008، بعد تأسيس الفريق الوطني للسيدات عام 2005، كأحد أوائل الفرق الوطنية للسيدات في غرب آسيا، وجاء في المركز الثالث في بطولة اتحاد غرب آسيا للسيدات، مرتين سنة 2007 وسنة 2019، وهي أحسن إنجازاته لحد الآن.

في الإمارات، أكّدت الحَكَمة الإماراتية أبرار القصاب، وجود صعوبات تواجه المرأة الراغبة في لعب كرة القدم في المجتمعات العربية، ويزداد الأمر حال رغبتها في العمل بمجالي التدريب والتحكيم: «عندما تقام مبارياتنا، يقتصر الحضور على أولياء الأمور، وأعضاء من مجالس إدارات الأندية واتحاد الكرة، وعدد محدود جداً من الجماهير، الذين علموا عن المباراة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، والتي نستفيد منها في الدعاية والترويج لفعاليات الكرة النسائية». وتابعت القصاب: «تعاني كرة القدم النسائية من نقص حاد في عدد الأندية المتنافسة، والتركيز الحالي أكبر من اتحاد الكرة الإماراتي على تطوير وتأهيل الحكمات، وأتمنى أن تشهد المرحلة المقبلة لقاء بين مسؤولي اتحاد الكرة الإماراتي، ومسؤولي الأندية، لتنفيذ خطة لتطوير كرة القدم النسائية».

وفقاً لآخر الاحصائيات الصادرة من الاتحاد الإماراتي لكرة القدم، هناك حوالي 2500 لاعبة مواطِنة مسجلة في الاتحاد، ويمارسن اللعبة في جميع الفئات والمراحل العمرية على صعيد دوريات الكرة النسائية. ويعتبر هذا العدد كبيراً، إذا وُضع في الاعتبار أن نشاط كرة القدم النسائية بدأ في دولة الإمارات اعتباراً من عام 2009. ولم يكن عدد اللاعبات المواطِنات يتجاوز 10 لاعبات حينها، ولذا استُعين بلاعبات أجنبيات لأجل تحفيز الإقبال على اللعبة في أوساط الفتيات[5]. مع العلم أن المنتخب الإماراتي لكرة القدم للسيدات أنشئ عام 2010، بخوضه أول مباراة في تاريخه مع المنتخب الفلسطيني.

الكرة في ملعب النساء... حلم بعضهن وكابوس المجتمعات العربية.

5- إيهاب زهدي، «كرة القدم النسائية: العدالة الغائبة»، جريدة «البيان»، 2021/02/03.

صعوبات على المستوى الاجتماعي

لقي تأنيث اللعبة مقاومة اجتماعية في العالم، لكنها صارت «شرعية» منذ الحرب العالمية الثانية. بينما ما زالت ممارسة المرأة لكرة القدم في المنطقة العربية تواجه حالة بين الرفض التام والاستيعاب الأوّلي. وعلى الرغم من اختلاف المستويات بين دول المنطقة العربية، إلا أن المعيقات تكاد تتطابق، وهي غياب التشجيع، بل المنع من تمارس ضغطاً على العائلات لمنع بناتهن من اللعب، خاصة قبل سماح الفيفا بارتداء غطاء الرأس في الملاعب. كما تعاني كرة القدم النسوية في المنطقة العربية من ظاهرة أخرى وهي التنمر على اللاعبات وأدائهن في المباريات.

صرّحت اللاعبة المغربية نعيمة فاضل، بأن كلمتي «عيب» و«حشومة» هي «أكثر الكلمات التي استعملتها عائلتي ضدي، قبل أن تضطر للتعايش مع اختياري». بينما كان الآخرون «يتحرشون بنا، أو ينعتوننا بالمسترجلات». لم يكن الرفض الاجتماعي وحده ما واجهته نعيمة، بل الظروف المادية الصعبة. ففي بداية مسارها، كانت تعمل في شركة خياطة، لتستطيع مواصلة هوايتها الكروية، بعد أن توقفت عن الدراسة في السنة الأولى من الجامعة. لكنها تفرغت لكرة القدم بشكل تام، متخذة منها مهنة، بعد أن نودي عليها للعب في صفوف المنتخب الوطني سنة 2009 [6]. إضافة إلى ذلك، تبقى الصورة الخاطئة عن كرة القدم، بأنها لعبة عنيفة ولا تصلح للنساء، من العوائق النفسية الاجتماعية القوية. وكرست الصورة ارتباط اللعبة بممارستها تاريخياً من قبل الرجل، وشهرتها كرياضة حصرية بالرجال، جمهوراً ولاعبين. بينما في الواقع، لا تختلف عن غيرها من الألعاب التي يمكن للمرأة ممارستها بسهولة ويسر.

صرّحت اللاعبة المغربية نعيمة فاضل، بأن كلمتي «عيب» و«حشومة» هي «أكثر الكلمات التي استعملتها عائلتي ضدي، قبل أن تضطر للتعايش مع اختياري». بينما كان الآخرون «يتحرشون بنا، أو ينعتوننا بالمسترجلات». لم يكن الرفض الاجتماعي وحده ما واجهته نعيمة، بل الظروف المادية الصعبة.

وانتقل الرفض الاجتماعي من الواقع إلى وسائل التواصل الاجتماعي، مواكبةً للاهتمام الشعبي المتزايد بكرة القدم النسوية. ففي المغرب نَشر شخص يزعم أنه داعية، فيديو يقول فيه «كرة القدم جائزة بقيود بخصوص الرجال، وإذا لم تُحترم تنتقل إلى الحرام، أما مباريات النساء فهي بلا شك حرام». ليخلص إلى أن «كل من شاهد هذه المباريات آثم». وفي السودان رافق الإعلان عن انطلاق أول دوري لكرة القدم النسائية، عام 2019، هجوم متعصب من أطياف التدين المتشدد، منها قول الداعية عبد الحي يوسف إن إطلاق هذا الدوري «هدم للدين». واعتبره رئيس هيئة علماء السودان، محمد عثمان صالح، دليلاً على علمانية الدولة المرفوضة، فـ«مشاهدة الرجال النساء وهن يمارسن كرة القدم أمر لا يجوز».

صعوبات في اللعب وظروفه

مع وجود كثير من العوائق، لا تزال منتخبات المنطقة العربية عاجزة عن الوصول إلى نهائيات كأس العالم للسيدات، باستثناء الإنجاز الحديث للمنتخب المغربي. واقتصرت مشاركات عدد من منتخبات المنطقة العربية في البطولات القارّية على المشاركة الشرفية أو الرمزية، فنرى منتخبات الجزائر، وتونس، ومصر في كأس الأمم

6- زهور باقي، «لاعبات مغربيات محترفات: تحدينا الجميع لنلعب الكرة!»، موقع «أصوات مغاربية»، 2018/01/18.

الأفريقية، من دون أثر حقيقي أو إنجاز. وما عدا وصول المنتخب المغربي إلى نصف نهائي كأس إفريقيا، الذي أهّله آلياً لكأس العالم، وتحقيق منتخب الأردن لإنجاز هام بالنظر إلى محيطه، بكونه الوحيد الذي مثّل العرب في كأس أمم آسيا للسيدات، عام 2014، لم يحقَّق أي إنجاز كبير.

كما لم تصل البطولات النسائية إلى حد الآن لمستوى الاحتراف، وتمارَس عبرها اللعبة كهواية فقط. وبسبب عدم إمكانية جعل كرة القدم مهنة للنساء، يصبح هاجس الدراسة سبباً في عرقلة كثير من اللاعبات. وبعضهن يتوقف عن اللعب، أو يتأثر مستواهن بممارسة مهنة أخرى إلى جانب لعب كرة القدم. وهذا أكبر عائق لتحوّل اللاعبات إلى محترِفات يمكنهن المنافسة في مسابقات دولية وقارّية. وهو ما يؤدي إلى ضعف المنتخبات، وقلة خبرة اللاعبات أنفسهن، وتراجع أداء المنتخبات كنتيجة طبيعية لقلة التجمعات والمعسكرات التي يخوضها كل منتخب أثناء استعداداته لأي منافسة. ويؤدي كل ذلك إلى ضعف الانسجام بين اللاعبات، نظراً لتجميع المنتخب قبل البطولة بأيام قليلة.

الوضع أفضل في التحكيم

هناك مساواة بين الرجل والمرأة في مجال التحكيم في المزايا المالية، على الرغم من النقص في نسب إسناد إدارة مباريات للمحترفين لأطقم تحكيم من السيدات، مما يتطلب جهداً أكبر في إشراكهن لتشجيع انخراط النساء في اللعبة، وعدم الاكتفاء بالحالات القليلة التي تحققت في بعض الدول. من جانب آخر، حققت بعض اللاعبات العربيات حلم الإحتراف، ومنهن المصرية سارة عصام، التي نجحت في خوض تجربة احترافية مع فريق «ستوك سيتي» الانجليزي للكرة النسائية، بعد رحيلها عن «نادي وادي دجلة» المصري في موسم 2017. وهناك اللاعبة المغربية رجاء الغزالي التي لعبت في عدد من الفرق الإسبانية. فيما تُعتبر زميلتاها روزيلا أيان، لاعبة الفريق النسوي لـ«توتنهام» الإنجليزي لكرة القدم، ونسرين الداودي لاعبة فريق «تولوز» الفرنسي، من أهم اللاعبات المحترفات اللواتي تعود أصولهن إلى المنطقة العربية.

من الحلم إلى الواقع

تُجمع الآراء وتصريحات اللاعبات والمسؤولات على ضرورة إعادة بناء الأندية، حتى يتماسك مستوى المنتخبات، وعلى الحرص على وجود بطولة احترافية لها كامل الشروط التي تتمتع بها البطولة الرجالية. بالإضافة إلى إحداث بطولة وطنية للأقل من 17 سنة، مع إيجاد مدارس كرة للفتيات والناشئات، وضبط الحد الأدنى لأجور اللاعبات، وتوفير ضمان اجتماعي، وتأمين يحقق استقراراً مادياً ونفسياً لهن، ووضع خطط سنوية محددة ومعروفة مسبقاً للمنتخبات، تتضمن إقامة المعسكرات والمباريات الودية، على أن تتزامن مع الالتزامات القارّية والإقليمية للمنتخبات بفئاتها العمرية المختلفة.

على الصعيد الإجتماعي والثقافي، ثمة حاجة إلى تسليط ضوء الإعلام والمجتمع المدني على كرة القدم النسائية، لمساعدة الفتيات اللاتي يرغبن في تحقيق حلمهن بممارسة تلك الرياضة، وتشجيع مزيد من المؤسسات الرياضية على تبنيها. مع ضرورة الاستثمار في كرة القدم النسائية، حتى تتمكن من الاقتراب من المساواة مع الرجال. فلا شك أن المال هو الدافع الأساسي لقاطرة الرياضة في العالم، وخصوصاً الأجور، التي تكفل دفع كرة القدم

للسـيدات إلى الأمـام بشـكل أسرع، وفي ضـوء زيـادة جماهيريـة الكـرة النسـائية مقارنـة بسـنوات البدايـة.

مـع الإشـارة إلى أن كثـيراً مـن الأنديـة الأوروبيـة بـدأت في الاسـتثمار في فـرق الكـرة، وضمّـت اللوائـح لـدى بعـض الاتحـادات، مـا يجبرهـا عـلى تكويـن أنديـة نسـائية. وهـي خطـوة تبـدو ضروريـة لتشـجيع كـرة القـدم النسـوية، بتوفـير حاضنـة طبيعيـة هـي الأنديـة الإحترافيـة.

لائحة دفاتر السفير العربي

2018

- الاقتصاد الموازي: ما الذي تنتجه هذه المنظومة ؟
- الهجرات: العالم يسيل - قصص العالقين في دول العبور
- الهجرات: العالم يسيل - قصص الحرّاقة
- اليسار في المنطقة العربية وسؤال مكامن العطب - دراسة حالات

2019

- مسألة الأرض - مصر، السودان، تونس، الجزائر والمغرب
- إدارة الموارد الطبيعية: نهب وتبديد وزبائنية وقلة كفاءة - مصر، الجزائر، تونس، المغرب، السودان وموريتانيا
- إشكاليات في مقاربة دراسة العشوائيات - مصر، الجزائر، السودان، اليمن، تونس، المغرب والعراق
- تأنيث العمل الهش - مصر، الجزائر، السودان، المغرب وتونس

2020

- 2019: انتفاضات مبتورة النتائج، السودان، العراق، الجزائر ولبنان
- انتفاضات 2019: ابداع تأسيسي

2021

- مجابهة كورونا في المنطقة العربية: الفصل الأول
- مواجهة كورونا وفداحة إصاباته ليست تقنية أو طبية فحسب
- اللقاحات ما بين التباهي الفج والظلم المعيب
- التفاوت: مكانة النساء بين الاعتقاد الشائع والسائد، وبين الواقع والوقائع

2022

- مبادرات النسـاء: قادرات وعازمات
- سيرورات معارك النساء الكبرى
- التغيُر المناخي: لقد آن الأوان!
- هل مخططات مواجهة التغير المناخي صحيحة وكافية؟

2023

- كرة القـدم: لماذا تهمّنا؟

Assafir Al-Arabi Folders

2018

- Informal Economy: What Does this System Produce
- Migrations: The World is Flowing - Stories of those caught in the transit countries
- Migrations: The World is Flowing - Stories of the borders burners (Harraga)
- The Left in The Arab Region and The Questions of Deficiencies - Case Studies

2019

- The Question of Land in Egypt, Sudan, Tunisia, Algeria and Morocco
- Natural Resource Management: Looting, Waste, Clientelism, and Incompetence
- Problematics in the Approach to Studying Informal Settlements
- The Feminization of Precarious Labour

2020

- The 2019 Major Uprisings: Severed Outcomes
- The 2019 Uprisings: A Constituent Creativity

2021

- Confronting Corona in The Arab Region: Act one
- Covid-19 Response: More than just a technical-medical issue
- Vaccines: Between Blunt Ostentation and Shameful Injustice
- Disparity: The Status of Women Between Prevalent Beliefs and Reality

2022

- Capable and Determined: Women Take Initiative
- Women's Major Battles: And Still They Fight
- Climate Change: It's about time!
- Are Climate Action Plans Effective and Sufficient?

2023

- Why does Football matter to us?

تحمل لعبة كرة القدم رمزيات متراكبة تخص كل المجالات. وهي ميدان لممارسة السياسة منذ نشأتْ، وقد استولدت أخيراً حركات المتحمسين لفرقها، الملتزمين بها كجيش جبار، والمعروفين بـ «الألتراس». وهؤلاء ليسوا المشجعين التقليديين، ولا هم الـ«هوليغن» المشاغبون، بل حركات منظِّمة، لها قواعدها وقوانينها المحْكمة، وتطبق ممارسات صارمة وتوفّر استعراضات كبرى متماسكة، ما يقرِّبها من الحركات الاجتماعية مع فارق أنها لا تمثل قطاعات مهنية أو فئوية بذاتها، بل تنتمي للفريق الذي تتبناه.

الشكل جديدٌ تماماً، وهو ملفت. وقد تبدّت لنا أهمية ظاهرة «الألتراس» أكثر من أي وقت منذ بدأوا باتخاذ مواقف سياسية تجلت في شعارات يرفعونها وأهازيج يطلقونها في الملاعب، تحكي عن آلام المجتمع، وتشكو الإهمال والفقر والقمع. ثم راحت تتضامن مع فلسطين المضطهَدة، في كل مناسبة وخلال كل لعبة، وعانت من قمع وملاحقات ومنع من الحضور إلى الستاد، أو أشكال متنوعة من تقنينه.

انسخ الصورة لزيارة موقع السفير العربي

أشرف «السفير العربي» على إعداد الأبحاث ونشرها على موقعه، بدعم من مؤسسة «روزا لوكسمبورغ».
يمكن استخدام محتوى النصوص أو أجزاء منه طالما تتم نسبته للمصدر.

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
مكتب شمال إفريقيا
North Africa Office

السفير العربي
www.assafirarabi.com